الأخلاق الإسلامية

المرجع الديني الراحل
آية الله العظمى السيد محمد الحسيني الشيرازي
(أعلى الله درجاته)

الطبعة الرابعة
١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م

تهميش:
مركز الجواد للتحقيق والنشر
بيروت لبنان ص ب ٥٩٥٥ / ١٣ شوران

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على الهادي البشير والسراج المنير محمّد وآله الطاهرين.

أمّا بعد، فإنّ الذي يلاحظ مسيرة الأنبياء العطرة، ويدقّق في حيثياتها المباركة، يتجلّى له كالشمس في وضح النهار أنّ كافّة الرسالات السماوية قد اتّفقت على مسألة واحدة . وإن اختلفت في الأدوار . ألا وهي مسألة إحياء الأخلاق الفاضلة بين الناس ونشر الآداب الحميدة في أوساطهم.

نعم، لقد عكفت الرسالات السماوية على نشر الأخلاق والقيم الأصيلة بين الشعوب على مرّ الأزمان، وقد ضحّى أرباب الرسالات بالغالي والنفيس من أجل تحقيق هذه الغاية السماوية، خاصّة خاتم الأنبياء النبي الأكرم محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي تحمّل الكثير من المشاقّ والرزايا حتّى قال مقولته المعروفة: «ما أُوذي نبي بمثل ما أُوذيت»[1].

وقد صرّح الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بأهمية دور الأخلاق وجعل إحياءها، وإرساء قواعدها، وتشييد صرحها، الهدف من بعثته، والغاية من رسالته فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّما بُعثت لأُتمّم مكارم الأخلاق»[2].

ومن جرّاء هذا التأكيد الكبير عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بالنسبة إلى الأخلاق الإسلامية، خرجت الأُمّة الجاهلية من ظلمات الجهل المطبق الذي كان يجثم فوق عقول الناس ونفوسهم إلى نور العلم والأخلاق، وأخذت ترتقي في مدارج التقدّم والكمال حتّى نالت أسمى المراتب وأعلاها بحيث إنّ الباري تعالى مدحها في كتابه الكريم فقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّة أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ﴾[3].

واليوم إذا أردنا إعادة ذلك المجد الأصيل الذي شيّده المسلمون في صدر الإسلام فلابدّ لنا من العودة إلى نفس الأخلاق الإسلامية التي نادى إليها رسول الإنسانية وأكّد عليها الأئمّة الأطهار عليهم السلام في شتّى أحاديثهم الشريفة.

وهنا تتّضح أهمية مباحث الأخلاق التي يؤكّد عليها العلماء الأعلام في مباحثهم ومصنّفاتهم الأخلاقية.

ومن ضمن البحوث الأخلاقية القيّمة التي كان لها دور مشرق في ترويج الأخلاق الإسلامية بين

---

(١) بحار الأنوار: ج٣٩ ص٥٥، كشف الغمّة: ج٢ ص٥٣٧، المناقب: ج٣ ص٢٤٧.

(٢) مستدرك الوسائل: ج١١ ص١٨٧ ح١٢٧٠١، بحار الأنوار: ج٦٨ ص٣٨٢، مكارم الأخلاق: ص٨.

(٣) سورة آل عمران: ١١٠.

الناس وإيصالها إلى مختلف الطبقات بأُسلوب سهل يحاكي العقول ويخاطب الضمائر الحيّة هو هذا الكتاب «الأخلاق الإسلامية» الذي ألّفه سماحة الإمام الشيرازي قدس سره . صاحب الأخلاق الفاضلة والآداب الإسلامية الرفيعة . عندما كان في مدينة كربلاء المقدّسة.

ولا يخفى أنّ هذا الكتاب هو حلقة صغيرة من مصنّفات الإمام الشيرازي الكثيرة البالغ عددها أكثر من ١٣٠٠ كتاب ومصنّف والتي تدلّ بوضوح على سعة علمه قدس سره وعمق إطّلاعه ومواصلة تتبّعه عن تراث أهل البيت عليهم السلام.

الناشر

مقدّمة المؤلّف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على محمّد وآله الطاهرين.

أمّا بعد: فهذا عرض موجز للأخلاق الإسلامية، انتزعناه من الكتاب الكريم والسنّة الشريفة، موضّحين فيه مدى عمق الرصيد الضخم الذي يتميّز به هذا الدين الحنيف. فقد يتحيّر الإنسان تعجّباً حينما يرى البون الشاسع بين القيادة المحمّدية صلى الله عليه وآله وسلم في الأخلاق، وبين المستوى الرديء الذي انحطّ إليه المسلمون في العصر الحاضر، وليس هذا ـ لدى التدقيق ـ إلاّ من خطط الاستعمار الذي سلب المسلمين كل شيء: من مبدأ ودين، وفضيلة وأخلاق.. فأبعد المسافة بينهم وبين الإسلام الحنيف، وأتى عليه، ثمّ دفنه بينهم وهو ينبض بالحياة، حتّى لا يقوم لهم عماد، ولا يتقدّم أحدهم بطلب دية هذا الموءود القتيل، الذي دفنه حقد الاستعمار الغاشم، القتيل الذي كان به عزّهم ورفعتهم، ودنياهم وآخرتهم، واستقلالهم وسيادتهم..

فقد ابتعد المسلمون عن دينهم حتّى أنّ بعضهم زعم ـ وهم في أحضان الكتاب والسنّة ـ أنّ سبب تأخّرهم هو الإسلام !، وأنّ علّة الفقر والجهل، والفساد والكبت، والاستبداد والدكتاتورية، هي تمسّكهم بمبادئه الأصيلة، وبذلك أصبح المريض يفرّ من علاجه إلى حيث يكمن موته المحتوم، والاستعمار مستمر في تشويه الحقيقة، ودائب في عرض البديل المصطنع والسقيم، والمسلمون غافلون عمّا يراد بهم، سائرون على المنهاج المصطنع، وكلّما ازداد المسير، ابتعدوا عن المقصد.

والمدهش حقّاً هو تهافت بعض شباب المسلمين على فُتات من موائد الغرب أو الشرق، زاعمين أنّه غذاء الروح السليم، فإذا ما ظهر كتاب اجتماعي أخلاقي لأحد الغربيين، يحمل اسم: «كيف تكسب الأصدقاء» تجدهم قد انقضّوا عليه مسرعين دون أن يعلموا أنّ ما فيه ليس إلاّ جزءً من ألف جزء من رصيدهم الثقافي العلمي العتيد، والاجتماعي الأخلاقي الضخم، الذي نثره بين أيديهم كتابهم وشريعتهم قبل أربعة عشر قرناً، ثمّ لا يبالون بأن ينسبوا شريعتهم إلى الرجعية والجمود، مع أنّ تقدّم الغرب ـ إن كان هناك تقدّم ـ هو مدين للإسلام العظيم.

إنّ من ينصف حقّاً لابدّ له أن يعترف بأنّ الإسلام أغنى شرائع السماء، وأكمل من كل قوانين الأرض، وأتقن من كلمات الحكماء، وآداب الكتّاب، وقصائد الشعراء.. من جهة شمولها على كنوز الفضيلة الممتعة، ومعادن الأخلاق الغنيّة، بل إنّنا إذا جمعنا كل الحكم والقصائد المنثورة والمنظومة، التي ورّثها الأنبياء والحكماء لوجدنا أنّ الإسلام أكثر منها جميعها غنىً من هذه الناحية.

إنّ الدين الإسلامي منذ أن أعلن نبيّه العظيم فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «بُعثتُ لأُتمم مكارم الأخلاق»[٤] أبدى

---

(٤) بحار الأنوار: ج٦٧ ص٣٧٢ ح١٨، مستدرك الوسائل: ج١١ ص١٨٧ ح١٢٧٠١.

شيئاً لم يكن بالحسبان ألا وهو الارتباط الوثيق بين الدين والخُلُق، بحيث إنّ كل شعيرة من شعائر الإسلام تجدها متشابكة مع فضيلة من الفضائل، فلا الدين وحده هو المناط، ولا الأخلاق وحدها هي الملاك، بل الدين والأخلاق معاً. وسيأتي عرض النواحي الأخلاقية لطائفة من الأحكام الشرعية المؤكّدة على أواصر القرابة بين الإسلام والفضيلة.

فمن لا فضيلة له لا دين له، وإن صلّى وصام وزكّى وحجّ.. ومن لا دين له لا فضيلة له، وإن جاد وأعطى، وواسى ووفى..

وعلى كلّ حال، فإنّ الأخلاق لا يكفي فيها الاتّصاف المجرّد الفارغ عن الروح، مثلما لا يجدي العلم بمحاسن الصفات، ومساوي الملكات، وإن قدر العالم بها من ترصيفها ووصفها، وتقسيمها وجمعها، وعلم أنّ أيّها داخل في القوّة الشهوية؟ وأيّها مرتبط بالحالة السبعية؟

بل إنّ النافع هو الملكة الحاصلة من التكرّر، بحيث تنطبع في النفس على أثرها الصفات الحميدة، وتنمحي عنها الخصال الفاسدة، ويصبح الرجل والكرم . مثلا . منتهى أُمنيته، والشجاعة رسم طبيعته، فتراه يجود في كل مناسبة، ويقدم في مظانّ الخوف والهول. وحينذاك يمكن أن يطمئن الإنسان بوجود الفضيلة في نفسه، وانمحاء الرذيلة عنها، إلاّ أنّ الوصول إلى ذلك يحتاج إلى تخطّي الكثير من العقبات الكأداء.

ولذلك . وكما قال علماء الأخلاق . إنّه ليس هناك وسيلة لتحصيل الملكة أجدى من دوام التذكّر، والاستمرار في العمل، فإنّ النفس كالورقة البيضاء، يؤثّر فيها المحيط والبيئة والتربية والتعليم.. وينطبع فيها الغالب من الصفات.

ولا يخفى أنّ الانطباع في النفس ليس أمر يسيراً، بل يحتاج إلى التكرار والمداومة. وبالمقابل فإنه لو انطبع فيها لون من ألوان الرذيلة، فالأمر أصعب بكثير. إذ حتّى يوفّق الإنسان إلى إزالة تلك الملكة، وإيجاد ملكة أُخرى ربما يحتاج عمراً كاملا.

وممّا يجدر الإشارة إليه هو أنّ الإنسان مهما تعب لتحصيل الفضيلة، وإزالة الرذيلة لم يكن عمله عبثاً أو قليل الفائدة .كما يزعمه البعض . وذلك لأنّ مدار الرقي، والذكر الحسن.. ليس إلاّ الفضيلة. أمّا سائر الأُمور الأُخرى: كالشرف الرفيع، والجاه العريض، والمال الغزير، بل والعلم الواسع لا تكاد تعد شيئاً يذكر ما دام الشخص عارياً عن حلية الأخلاق الحسنة، وفاقداً لجمال الآداب الحميدة وإن احتاج إليه الناس وركعوا أمام شرفه أو جاهه.. فإنّه عرض زائل، لا بقاء له ولا دوام .

كربلاء المقدّسة

محمد بن المهدي الحسيني الشيرازي

الفصل الأوّل

- الطهارة
- طهارة العين
- نزاهة اللسان
- الاعتدال في الحديث
- طهارة الجوارح
- نقاء السريرة
- طهارة الجسد
- أخذ الشعر وتسريحه
- استحباب السواك
- اتّخاذ الطيب
- استحباب الحمّام
- نظافة المنازل

الطهارة

الطهارة من أوّليات الشرع الإسلامي، ومن ضروريات الدين الحنيف، ولذا ترى أنّ أوّل كتاب يبحث في الفقه هو كتاب: (الطهارة). وليست الطهارة الظاهرية فقط بل الطهارة الباطنية أيضاً مقابل القذارة الظاهرية والقذارة الباطنية، فإنّ القذارة على قسمين: معنوية وظاهرية، وكلتا القذارتين نقص يشين الشخص ويسقطه عن الكمال فيهبط به إلى هوّة الدناءة والخسّة وإن كانت القذارة المعنوية أهبط جهة وأخسّ درجة، فالقذارة هي هي، سواء لوّثت الباطن أو الظاهر. وقد يفرّق بينهما فيقال: إنّ الظاهرة منها تنكشف للعين بأوّل نظرة فيمجّها النظر وتزدري نفس صاحبها منها فيكون الاجتناب عنها أسرع والتخلّص من آثارها أسهل. أمّا الباطنة فلاتنكشف إلاّ عند التجربة حيث تنبري خفايا النفس وتظهر تعاريج الضمير.

وحيث إنّ الإسلام يحرص كلّ الحرص على تطهير المجتمع من رواسب القذارة فإنّه أخذ يرشد الإنسان إلى مواضع الطهارة، ويؤكّد على ضرورة النقاء، ولزوم التنظيف المستمر للقلب والجوارح وسائر الأعضاء، على حدّ سواء. ويحذّر الإنسان من الغفلة في هذا المجال، ومن التجاهل وعدم الاعتناء بما يصيب جسده من القذارات، أو ما ينشب في قلبه من الرذائل، فقد توالت الإرشادات في القرآن الكريم والسنّة الشريفة إلى لزوم النظافة بشكل كبير. وما الرصيد الضخم من الأحاديث المنادية إلى تحصيل الفضيلة والتجلّي بها فضلا عن تسليط الأضواء على الرذائل المنفّرة إلاّ لما ذكرناه.

والمسلمون في العهود السابقة حيث كانوا ملتزمين بأحكام الشريعة، ومستنّين بمناهجها السمحة، كانت أخلاقهم أجمل، ومشاعرهم أطهر، حتّى إذا ما جاء اليوم الذي تخلّوا فيه عن قرآنهم وحديثهم، فارتكسوا في بؤرة القذارة، وارتطموا في أوحال الدناءة.

طهارة العين

إحدى الصفات الحميدة للإنسان هي طهارة العين من الخيانة، وذلك بأن لا يمدّ عينه إلى حرمة من حرمات الله، ولا يتمنّى ما ليس له من أعراض الناس ، وأموال الآخرين.

وقد نهى الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك تنبيهاً للأُمّة، وإرشاداً لما فيه صلاح القلب، فقال عزّ من قائل: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا﴾(٥).

إنّ الله تعالى حسب حكمته العادلة يُمتّع أصنافاً من الناس بمتع الحياة الدنيا ، اختباراً لهم وامتحاناً للذين حُرموا منها، أو جزاءً على سالف أعمال عملوها ابتغاء مرضاة الله، وليس ما يُمتّع به هؤلاء إلاّ كزهور الربيع التي لا تلبث طويلا حتّى تلفحها نفحات الصيف فتذويها وتذهب بزينتها، وتهشّم عودها فتصبح هشيماً تذروه الرياح.

---

(٥) سورة طه: ١٣١.

ولذلك فإنّ الذي يمدّ العين إليها ليس إلاّ متمنّياً ما ليس له، وراغباً فيما لم ترَ الحكمة العليا صلاحه فيه، وربما كان نظره هذا مجلبة لحسرة دائمة، ومفسدة لقلب سليم.

ففي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «النظر سهم من سهام إبليس مسموم، وكم من نظرة أورثت حسرة طويلة»(٦) فكما أنّ السهم يؤثّر في الجسم فيفسد أعضاءه كذلك النظر المسموم، فإنّه يؤثّر في الروح فيفسد القلب، بل ربما كان السم في النظر أفتك من السم في السهام المسمومة. إذ أنّ المفاسد التي تترتّب على السهام المسمومة أقلّ من المفاسد التي تنطوي عليها النظرات الطائشة.

ولذا فإنّ الإمام الصادق عليه السلام يقول: «النظرة بعد النظرة تزرع في القلب الشهوة. وكفى بها لصاحبها فتنة»(٧) وأي فتنة أعظم من ثمار هذا الزرع الخبيث . ثمار النظر إلى المحرّمات . الذي يعجز الأطباء عن قلع جذوره فيبقى ينمو وينمو حتى يؤتى أُكله المرّ البشع.

فعن الصادقين عليهما السلام: «ما من أحد إلاّ وهو يصيب حظّاً من الزنا: فزنا العينين النظر!، وزنا الفمّ القبلة!، وزنا اليدين اللمس!، صدّق الفرج ذلك أو كذب»(٨) ولا غرابة في ذلك، فإنّ النظر شهوة محرّمة والزنا كذلك شهوة محرّمة. ولذلك شبّه الأوّل بالثاني وإن اختلفت المراتب، وتباعدت المقادير.

ونحن لو تساءلنا قائلين: ما هي غاية من ينظر إلى ما ليس له مع إنّه يجرّ إلى قلبه الاضطراب، وإلى أعصابه الهيجان؟ بل إنّه كمن يأكل ما يمرضه لمجرد أنّه حلو المذاق، أو شهوة لسان، ولو صبر قليلا، وكبح جماح نفسه، لوجد حلاوة الطهارة وراحة الأمن من المفسدة الموبقة. ولهذا يقول الإمام الصادق عليه السلام : «النظرة سهم من سهام إبليس مسموم، من تركها لله عزّوجلّ لا لغيره، أعقبه الله أمناً وإيماناً يجد طعمه»(٩).

وكم في قوله: «لله.. لا لغيره» من حكمة؟! إذ أنّ من يترك النظر لأمر يرجوه، أو غاية يخافها . غير الله . لا يلبث طويلا حتّى تحدّثه نفسه بأضعاف ما كانت تسوقه إليه عينه من الوسواس، ثمّ هو إن نجى من المزلقة هذه المرّة لبعض الأُمور، فلن ينجو منها مرّة أُخرى، فهو عرضة للخطر، ومظنّة للإثم، وموضع زلّة وفساد.

وإلى ذلك يشير الإمام الرضا عليه السلام قائلا: «وحرّم النظر إلى شعور النساء المحجوبات بالأزواج، وإلى غيرهنّ من النساء، لما فيه من تهييج الرجال، وما يدعو إليه التهييج من الفساد، والدخول فيما لا يحل

---

(٦) الكافي: ج٥ ص٥٥٩ ح١٢، بحار الأنوار: ج١٠١ ص٤٠ ح٤٦، المحاسن: ج١ ص١٠٩ ح١٠١.

(٧) من لا يحضره الفقيه: ج٤ ص١٨ ح٤٩٧٠، وسائل الشيعة: ج٢٠ ص١٩٢ ح٢٥٤٠٠.

(٨) وسائل الشيعة: ج٢٠ ص١٩١ ح٢٥٣٩٦.

(٩) من لا يحضره الفقيه: ج٤ ص١٨ ح٤٩٦٩، وسائل الشيعة: ج٢٠ ص١٩٢ ح٢٥٣٩٩.

ولا يجمل، وكذلك ما أشبه الشعور..»[١٠].

فالنظر وإن بدا ـ بادئ الأمر ـ تافهاً لا قيمة له في فساد أو إفساد، إلاّ أنه أوّل القطار، فلا يلبث طويلا حتّى تنجم عنه عواقب وخيمة، وتترتّب عليه هنات عظيمة.

وحيث إنّ من أدب الرسول صلى الله عليه وآله التدرّج في بيان الفضائل وفق تلائم الظروف ولكي يكون الإرشاد بلسماً للجرح الذي يقاسيه المجتمع، فيقع موضع القبول والتسليم. فقد كانت عظاته صلى الله عليه وآله موقوتة، وتوجيهاته موزّعة حسب الظروف والأحوال..

ففي الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «استقبل شاب من الأنصار امرأة بالمدينة ـ وكان النساء يتقنّعن خلف آذانهنّ ـ فنظر إليها وهي مقبلة، فلمّا جازت نظر إليها، ودخل في زقاق قد سمّاه ببني فلان، فجعل ينظر خلفها، واعترض وجهه عظم في الحائط أو زجاجة، فشقّ وجهه، فلمّا مضت المرأة، نظر فإذا الدماء تسيل على ثوبه وصدره، فقال: والله لآتين رسول الله صلى الله عليه وآله ولأخبرنّه! فأتاه فلمّا رآه رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ما هذا؟ فأخبره، فهبط جبرئيل عليه السلام بهذه الآية: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[١١]»[١٢].

ولا يخفى أنّ للترتيب الموجود في الحديث بين غضّ البصر، وحفظ الفرج، ثمّ بعد ذلك بيان الزكاة التي هي الطهارة عقيب ذينك الأمرين، له حكمته المهمّة، فإنّ النظرة الخاطفة هي التي تثير بوادر الزنا، إلى أن يفقد الإنسان الطهارة والشرافة التي نادى إليها الإسلام. فكم حدّثنا التأريخ عن مآسي خيانة العين، فليس من الصدفة أن ينصّ القرآن على علم الله تعالى بحركة العين الطائشة فيقول عزّوجلّ: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[١٣] بل إنه تعالى يحيط عباده علماً ويخبرهم بأنّه سبحانه عالم بخيانة الأعين وبما تخفيه الصدور، وسوف يحاسبهم على كل لمحة بصر، وكل وسوسة صدر.

هذا من جانب ومن جانب آخر: إنّ هناك شيئاً أسوأ من النظر المحرّم في الأزقّة والطرقات، ألا وهو النظر المحرّم للأعراض المحرّمة في البيوت أو من فوق السطوح أو شقّ الباب أو كوّة البيت.. فهو خيانة ودناءة، يأباهما من شرفت نفسه، وطهرت سريرته.

وإلى ذلك يشير رسول الله صلى الله عليه وآله في حديثه قائلا: «من اطّلع في بيت جاره، فنظر إلى عورة رجل أو شعر امرأة، أو شيء من جسدها، كان حقّاً على الله أن يدخله النار، مع المنافقين الذين كانوا يتّبعون عورات النساء في الدنيا، ولا يخرج من الدنيا حتى يفضحه الله ويبدي للناس عورته في الآخرة، ومن ملأ عينيه من امرأة حراماً، حشاهما الله يوم القيامة بمسامير من نار، وحشاهما ناراً حتّى يقضي بين الناس، ثمّ

---

(١٠) وسائل الشيعة: ج٢٠ ص١٩٣ ح٢٥٤٠٦، بحار الأنوار: ج١٠١ ص٣٤ ح١٢، علل الشرائع: ج٢ ص٥٦٤ ح١.

(١١) سورة النور: ٣٠.

(١٢) الكافي: ج٥ ص٥٢١ ح٥، وسائل الشيعة: ج٢٠ ص١٩٢ ح٢٥٣٩٨.

(١٣) سورة غافر: ١٩.

يؤمر به إلى النار»[١٤].

نعم، فإنّ النظر إلى عرض محظور، أو إلى عورة محرّمة، والتطلّع في بيت محجور، ومدّ العين إلى خصوصيات الآخرين.. كلّها جنايات نفسية، تكشف عن خفّة الحجى، ودناءة الباطن.

نزاهة اللسان

المسلم نزيه اللسان، فهو لا يلمز، ولا يهمز، ولا يشتم، ولايهذر، ولا يستغيب، ولا ينمّ، ولا، ولا... فاللسان كثير الجريمة، إن لم تصدّه النزاهة، ولم يزمّه الرجل بزمام من الصمت، ربما أودى بصاحبه، وأورده موارد الهلكة، ولذا فإنّ الإنسان الثرثار عادةً ما يغلب عليه العطب، ويثقل على الناس مجلسه. حيث إنّه يسيء إلى الغير وهو يظنّ أنّه يحسن.

فالقاذورات مهما كانت منتنة، وكان تنفّر الإنسان منها أكثر، فإنّها لا تبلغ عشر معشار ما يبلغه اللسان القذر، إذ أنّ القذارة إنّما تولد جراثيم تسبّب الأمراض البدنية وأخيراً تؤدّي إلى هلاك رجل أو رجال. أمّا اللسان فقد يجمح فيولد الجراثيم الروحية التي هي أفتك من جراثيم المرض بكثير حتّى يبلغ به الأمر أن يُهلك أجيالا وأجيالا.

من جانب آخر فإنّ أقلّ ما يناله كثير الكلام أن يعرف في المجتمع بالثرثرة والهذر. كما إنّ أصغر حظّ الصموت هي الهيبة في القلوب وظنّ الناس فيه كلّ خير. فعن الإمام الرضا عليه السلام: «من علامات الفقه: الحلم والعلم والصمت، إنّ الصمت باب من أبواب الحكمة، إنّ الصمت يكسب المحبّة إنّه دليل على كل خير»[١٥].

فما أكثر ما يندم المتكلّم! وأقلّ ما يندم الصامت! إنّ الإنسان الثرثار إذا أرخى زمام لسانه تعرّض لذكر الرطب واليابس، وتوجّه إلى الصلاح والفساد، وذهب مسالك الحقّ والباطل، أمّا الساكت، فإنّه وإن قصّر في نصرة الحقّ من جانب، لكنّه لم يتكلّم بالباطل ولم يفسد في الأرض وكفى بذلك نفعاً.

فعن الإمام الباقر عليه السلام: «إنّ داود قال لسليمان عليهما السلام: يا بني إيّاك وكثرة الضحك! فإنّ كثرة الضحك تترك العبد حقيراً يوم القيامة. يا بني عليك بطول الصمت إلاّ من خير. فإنّ الندامة على طول الصمت مرّة واحدة، خير من الندامة على كثرة الكلام مرّات. يا بني لو أنّ الكلام كان من فضّة كان ينبغي للصمت أن يكون من ذهب»[١٦].

وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتعهّد أصحابه من جهة الكلام كما كان يتعهّدهم من ناحية الصلاة والزكاة،

---

(١٤) وسائل الشيعة: ج٢٠ ص١٩٤ ح٢٥٤١٠.

(١٥) الكافي: ج٢ ص١١٣ ح١، وسائل الشيعة: ج١٢ ص١٨٢ ح١٦٠٢٣، بحار الأنوار: ج٢ ص٤٨ ح٦ ، الخصال ج١ ص١٥٨ ح٢٠٢.

(١٦) بحار الأنوار: ج١٤ ص٣٥ ح٨.

فيشير في كل مناسبة إلى أضرار اللسان، ويؤكّد كل مرّة على مساوئ الثرثرة وعواقبها الوخيمة.

فعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «أتى النبي صلى الله عليه وآله أعرابي فقال له: ألست خيرنا أباً وأُمّاً وأكرمنا عقباً ورئيسنا في الجاهلية والإسلام؟ فغضب النبي صلى الله عليه وآله وقال: يا أعرابي، كم دون لسانك من حجاب؟! قال: اثنان: شفتان وأسنان. فقال صلى الله عليه وآله: فما كان في أحد هذين ما يردّ عنّا غرب لسانك هذا ؟! أما إنّه لم يعط أحد في دنياه شيئاً هو أضرّ له في آخرته، من طلاقة لسانه. يا علي قم فاقطع لسانه، فظنّ الناس أنّه يقطع لسانه، فأعطاه دراهم »[١٧].

فعلى الرجل المسلم أن يتعهّد لسانه كما يتعهّد الزارع زرعه وإلاّ نبت من الطفيليات والأعشاب الضارّة، ما يهلك الحاصل، فتذهب أتعابه أدراج الرياح.

ويكفي المرء منّا أن يراقب يوماً واحداً ندوة من الأندية، ويلاحظ كلام الناس وهذرهم ليعرف عظم الجنايات التي يحتقبها اللسان، وحينذاك يدرك عظمة قول الإمام الصادق عليه السلام حيث قال: «ما عبد الله بشيء أفضل من الصمت، والمشي إلى بيته»[١٨].

ولسائل أن يسأل فيقول: ما هو الرابط بين الصمت والمشي إلى بيت الله؟ فيقال في جوابه: إنّ الصمت تهذيب فردي، والذهاب إلى بيت الله الحرام تهذيب اجتماعي، لما في ذلك من اجتماع المسلمين، وتعرّف بعضهم على بعض، وما يعود إليهم بذلك من خير، فهما من أفضل العبادة.

وقد قال الإمام الصادق عليه السلام لسفيان: «يا سفيان أمرني والدي عليه السلام بثلاث، ونهاني عن ثلاث، فكان فيما قال لي: يا بني من يصحب صاحب السوء لا يسلم، ومن يدخل مداخل السوء يتّهم، ومن لا يملك لسانه يندم، ثمّ أنشدني[١٩]:

عوّد لسانك قول الخير تحظ به إنّ اللسان لما عوّدت معتـــاد

موكّل بتقاضي ما سننـت له في الخيروالشرّ فانظر كيف تعتاد

وقد نقل: أنّ لصّاً دخل بيت حائك، فإذا به يحوك بزّة قشيبة[٢٠] وهو يقول إبان حياكته: (اللهمّ سلّم رأسي من حصيد لساني) ولما أتمّ الحياكة، أخذ البزّة وجاء بها إلى بيت الملك، فتبعه السارق، علّه يحصل فرصة يسلب منه البزّة، حتّى وصل الحائك بيت السلطان، وقدّم البزّة، فأعجب الملك بها، واستشار وزرائه عمّا تصلح له، فأشار كل بما يرتئيه، وحينذاك قال الملك: إنّ أعلم الناس بما تصلح له هو الحائك نفسه، ولما استشاره عن ذلك، قال: إنّها تصلح للإلقاء على جنازة الملك.

---

(١٧) بحار الأنوار: ج٢٢ ص٨٦ ح٣٨، معاني الأخبار: ص١٧١.

(١٨) وسائل الشيعة: ج١١ ص٧٩ ح١٤٢٩٠، بحار الأنوار: ج٦٨ ص٢٧٨ ح١٥، الخصال: ج١ ص٣٥ ح٨، روضة الواعظين: ج٢ ص٣٣٦.

(١٩) بحار الأنوار: ج٦٨ ص٢٧٨ ح١٧.

(٢٠) القشيب: هو الجديد. لسان العرب مادّة قشب.

فتغيّر الملك، واستشاط غيظاً، وأمر بقتل الحائك، وإذا بالسارق يستمهل الجلاّد، ويبيّن قصّته، وما كان يتكلّم به حين الحياكة، فعفا عنه الملك بعد ما علم أنّه لم يقل ذلك عن عمد.

وما أروع المثال في الحديث المروي عن الإمام زين العابدين عليه السلام حيث قال: «إنّ لسان ابن آدم يشرف كل يوم على جوارحه، فيقول: كيف أصبحتم ؟ فيقولون: بخير إن تركتنا، ويقولون: الله الله فينا! ويناشدونه ويقولون: إنّما نثاب بك ونعاقب بك»(٢١).

وعلى كل حال: فإنّ الكثير من العقوبات تحلّ على الأعضاء، بما يجنيه اللسان من شرّ، فإذا تركها اللسان كانت سليمة، وإلاّ وقعت في أذى وخبال.

فأي داع إلى الهذر بعد العلم إنّ الكلام الكثير يؤدّي إلى الضرر الوخيم؟ وهل العاقل يجرّ إلى نفسه الويلات بمشتهى لفظ يلفظه أو كلمة يتكلّم بها؟ علماً أنّ هناك حفظة يحفظون حصائد الألسنة ليجزى الشخص بها يوم القيامة يوم العرض الأكبر حيث قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْل إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(٢٢).

وقد استخلص الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من هذه الآية الكريمة معناً بديعاً، فعن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قال: «مرّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام برجل يتكلّم بفضول الكلام، فوقف عليه، ثمّ قال: يا هذا! إنّك تملي على حافظيك كتاباً إلى ربّك! فتكلّم بما يعنيك، ودع ما لا يعنيك»(٢٣).

يا للهول! إنّ الكتاب الذي نمليه بحصائد ألسنتنا إنّما نمليه إلى الربّ! فلو كان الكتاب إلى ملك من الملوك، لتروّى الإنسان في تنميق الألفاظ، وتزويق المعاني، وتهذيب الوجوه. فكيف والكتاب إلى إله الكون ومن بيده البدء والمعاد؟!

الاعتدال في الحديث

إنّ كل شيء يرجّح فيه الوسط، فلا إكثار ولا إقلال، ولا تفريط ولا إفراط . فالحقّ يلزم الجهر به، والإرشاد يجب تقديمه، والتربية والتأديب، والتعليم والهداية، كلّها مندوب إليها. والغالب أنّ هذه الأُمور تصبّ في قوالب الألفاظ . ولذا فإنّ الكلام في مثل هذه الموارد مرغوب فيه، وكما في المثل: (الساكت عن الحقّ شيطان أخرس). وقد سئل علي بن الحسين عليه السلام: عن الكلام والسكوت، أيّهما أفضل؟ فقال: «لكل واحد منهما آفات. فإذا سلما من الآفات، فالكلام أفضل من السكوت. قيل: كيف ذلك

---

(٢١) مستدرك الوسائل: ج٩ ص٢٥ ح١٠١٠٥، بحار الأنوار: ج٦٨ ص٢٧٨ ح١٤، الاختصاص: ص٢٣٠، الخصال: ج١ ص٥ ح١٥.

(٢٢) سورة ق: ١٨.

(٢٣) من لا يحضره الفقيه: ج٤ ص٣٩٦ ح٥٨٤١، الأمالي للصدوق: ص٣٢ ح٤، وسائل الشيعة: ج١٢ ص١٩٧ ح١٦٠٧٤، روضة الواعظين: ج٢ ص٣٧٠، بحار الأنوار: ج٦٨ ص٢٧٦ ح٤.

يا بن رسول الله؟ قال: لأنّ الله عزّوجلّ ما بعث الأنبياء والأوصياء بالسكوت، إنّما بعثهم بالكلام. ولا استحقّت الجنّة بالسكوت، ولا استوجبت ولاية الله بالسكوت، ولا توقيت النار بالسكوت ..»[٢٤].

كما أنّ الأنبياء الكرام، والمصلحين العظام أرشدوا وهدوا، وأصلحوا ووجّهوا بالكلام، فمن الخطأ أن نظن أنّ الكلام في الإصلاح وإظهار الحقّ يعدّ هذراً. كما أنّ من الخبال ظنّ الحقّ باطلا، فطهارة اللسان لا يراد بها الإلجام، بل نزاهته تكون بتجنّب اللغو والباطل، وليس بترك الإرشاد والذكر، فالمسلم نزيه اللسان، طاهر الفم، نظيف اللهات.

طهارة الجوارح

إنّ المسلم طاهر اليد، فهو لا يسرق، ولا يخون، ولا يتّبع الشهوات الجنسية غير المشروعة.

فالاعتدال في حركات اليد والرجل وسائر الجوارح هو خير دليل على الاعتدال في النفس، إذ أنّ النفس الأبيّة لا تهبط إلى مستوى الخسّة والانحطاط، وإنّما تحلّق في سماء الطهارة والعفّة.

ففي عهد الجاهلية الغابرة . مع ما كانت عليه من وضاعة الأخلاق وانحراف السلوك . كانت تعدّ نزاهة اليد والرجل فضيلة يحمد عليها صاحبها ، وإن كان المجتمع مرتكساً في بؤرة القذارة والانحطاط، ولعلّ خير شاهد على ذلك هي المفاضلة التي جرت بين جدّ النبي ﷺ وجدّ خصمه حيث قال فيهما شاعرهم:

«أبوك معاهر، وأبوه عفّ..»[٢٥] .

بل إنّ العرب كانت تُسمّي النبي ﷺ: (الأمين)[٢٦].

وعلى كل فإنّ السرقة جريمة، وكذا الخيانة، والزنا.. جريمة، تترفّع عنها نفوس الأكرمين، فضلا عن أمر الإسلام باجتنابها.

والجدير بالذكر أنّ الإسلام قيّد قبول إسلام المؤمنات اللواتي كنّ يبايعن الرسول الأعظم ﷺ بالعفّة والنزاهة، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لاَ يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئاً وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَان يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوف فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٢٧].

فليس من الصدفة العابرة أن يقدّم الله تعالى في قوله المبارك اشتراط عدم السرقة والزنا، على اشتراط عدم القتل، إذ أنّ القاتل قد يقتل لهيجان الأعصاب، ثمّ يندم، ولكن السارق والزاني، لا يفعلان الجريمة

---

(٢٤) وسائل الشيعة: ج١٢ ص١٨٨ ح١٦٠٤٥، بحار الأنوار: ج٦٨ ص٢٧٤ ح١، الاحتجاج: ج٢ ص٣١٥.

(٢٥) شرح نهج البلاغة: ج١٥ ص٢٠٧.

(٢٦) الخرائج والجرائح: ج٢ ص٨٨٥، بحار الأنوار: ج١٥ ص٣٨٣.

(٢٧) سورة الممتحنة: ١٢.

إلاّ ونفسهما ملوّثة، وضميرهما آثم أحاط به كدر القذارة! ففي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «كان أمير المؤمنين (عليه الصلاة والسلام) يقول: أفضل العبادة العفاف»[٢٨].

وقال الإمام الباقر عليه السلام: «ما عُبد الله بشيء أفضل من عفّة بطن وفرج»[٢٩].

أجل، فالإسلام الحنيف لا يمنع عن الطيّب من الأكل والزواج، بل يحرص كلّ الحرص على إشباع هاتين الغريزتين بالموارد الطيّبة المشروعة ، حتّى لا يتسوّل البطن، ويتلهّف الفرج، نحو المحرّم القذر. وحقّاً إنّ عفّة البطن والفرج هي من أفضل العبادة، وأيّ عبادة أفضل من التحصّن عن المفاسد الأخلاقية التي بها ينهار المجتمع، فالزنا مثلا والعياذ بالله، وكذلك مراودة الولدان، واقتناع الفتيات بالفتيات، تسبّب الأمراض الفتّاكة والمعدية، وهي أشدّ خطورة على المجتمعات من وباء الطاعون.

ولذا فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال في حديث له: «أكثر ما تلج به أُمّتي النار الأجوفان: البطن والفرج»[٣٠].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاث أخافهنّ من بعدي على أُمّتي: الضلالة بعد المعرفة، ومضلاّت الفتن، وشهوة البطن والفرج»[٣١].

وفي واقع الأمر لو نظر الإنسان منّا إلى المجتمعات المنهارة، لوجد أنّ هاتين الشهوتين هما الطاغيتان عليه، ففي المجتمع المهزول، تتولّد جراثيم الفحشاء، ثمّ تطغى وتطغى حتّى تعمّ البيوت الشريفة. وحينذاك تستحقّ تلك الأُمّة اللعنة والبوار، وكذا في الأُمم المنحطّة تعمّ السرقة، وتفشو الشهوات، ولا تجد لأفرادها عملا غير امتلاء البطن من حلّ أو حرام، وقد كان رجل من (الشرفاء) يقول: (الحلال ما حلّ بالكفّ)!.

وبالمقابل فإنّ طابع الأُمّة المتقدّمة، والمجتمع الراقي، هو طهارة البطن وما حوى، وحفظ الفرج وما دنى..

وإلى ذلك يشير الإمام الباقر عليه السلام . في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً﴾[٣٢]. حيث يقول: «فأمّا اللباس فالثياب التي تلبسون، وأمّا الرياش فالمال والمتاع،

---

(٢٨) الكافي: ج٢ ص٧٩ ح٣، وسائل الشيعة: ج١٥ ص٢٥٠ ح٢٠٤١٩، مستدرك الوسائل: ج١١ ص٢٧٥ ح١٢٩٨٩، بحار الأنوار: ج٦٨ ص٢٦٩ ح٣.

(٢٩) الكافي: ج٢ ص٧٩ ح١، وسائل الشيعة: ج١٥ ص٢٤٩ ح٢٠٤١٥، بحار الأنوار: ج٦٨ ص٢٦٨ ح١.

(٣٠) الكافي: ج٢ ص٧٩ ح٥، وسائل الشيعة: ج١٥ ص٢٤٩ ح٢٠٤١٦، مستدرك الوسائل: ج١١ ص٢٧٤ ح١٢٩٨٥، بحار الأنوار: ج٦٨ ص٢٦٩ ح٥.

(٣١) الكافي: ج٢ ص٧٩ ح٦، من لا يحضره الفقيه: ج٤ ص٤٠٧ ح٥٨٨١، وسائل الشيعة: ج١٥ ص٢٤٩ ح٢٠٤١٧، مستدرك الوسائل: ج١١ ص٢٧٦ ح١٢٩٩٥، بحار الأنوار: ج١٠ ص٣٦٨ ح١٥.

(٣٢) سورة الأعراف: ٢٦.

وأمّا لباس التقوى فالعفاف. إنّ العفيف لا تبدو له عورة، وإن كان عارياً من الثياب، والفاجر بادي العورة وإن كان كاسياً من الثياب»[٣٣].

ولعلّ معنى ذلك هو: إنّ الفاجر مهتوك وإن ارتقى قمّة الجاه، وأحاط به تليد الأموال وطارفها، وستره جميل الثياب وناعمها، فإنّها سرعان ما تزول عنه جميعاً، وقريباً ما يجرّد عن ثيابه المزيّفة كلّها، فيبدو للناس كأبشع ما يكون، وأقبح ما يُتصوّر، تشير إليه الأصابع بالسوء، وتلحظه العيون بنظرات شزر. وإنّ العفيف مستور، وإن لم يكن له أيّ مقام وجاه، ولم يملك أي شيء من المال والمتاع، ولم يستره جميل الثياب واللباس، لكن واقعه العفيف سيجعله عند الناس محبوباً، وفي القلوب مهيباً، وفي الصدور معظّماً.

إنّ العفّة جهاد مع العدو الداخلي، وهو جهاد أكبر، فإنّ الآخذ بزمام نفسه الأمّارة بالسوء، وهواه الداعي للشرّ، هو أصعب بكثير من الجهاد في ساحة الحرب، وميادين الوغى، ولذا قد يجاهد الجندي العدوّ الخارجي وسط الحديد والنار، لكن تراه يركع أمام مغريات الحياة، وعند مفاتن فتاة، وتجاه الدرهم والدينار.

وفي الحديث: «إنّ رجلا جاء إلى الإمام الباقر عليه السلام وقال: إنّي ضعيف العمل، قليل الصلاة، قليل الصوم، ولكن أرجو أن لا آكل إلاّ حلالا، ولا أنكح إلاّ حلالا، فقال عليه السلام: وأيّ جهاد أفضل من عفّة بطن وفرج؟»[٣٤].

يعني إنّ الإسلام يريد أن يكون الإنسان عفيفاً نزيهاً عفيف البطن والفرج، نزيه اليد والرجل، وكذلك يكون المسلم الحقيقي.

نقاء السريرة

إنّ المسلم نقي السريرة، طيّب القلب، سليم النفس، طاهر الروح، فهو لا يحسد، ولا يرائي، ولا يتكبّر، ولا يعتلي، ولايحقد، ولا ينوي الشرّ.. فالإسلام يريد أن يكون ضمير الشخص وقلبه أشدّ بياضاً من الثلج، وأنقى من اللجين، وأصفى من الماء العذب، يطوي على الخير، ويثني على الحقّ ، يسع الدنيا برحبها، ويشرق إشراق الشمس في رابعة النهار.

وكما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدْ اللهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَيُؤْمِنُونَ﴾[٣٥].

ومن المعلوم: إنّ إرادة الله تعالى ليست كالطفيليات التي تنبت مع الزرع لا بذر لها ولا سابقة، فالحكمة العليا لا تأتي عبثاً، بل إنّ المرء إذا اتّبع عقله، ولبّى نداء فطرته، وكفّ نفسه عن الهوى، أخذ

(٣٣) بحار الأنوار: ج٨٠ ص١٦٨، تفسير القمّي: ج١ ص٢٢٥.

(٣٤) بحار الأنوار: ج٦٨ ص٢٧٣ ح١٨، المحاسن: ج١ ص٢٩٢ ح٤٤٨.

(٣٥) سورة الأنعام: ١٢٥.

الله تعالى بيده، وشرح للحقّ صدره ، بينما المرء إذا اتّبع شهواته، وتنكّب الطريق، ولوى عن الحقّ، وثنى عطفه، تركه الله وهواه، ووكّله إلى نفسه، فلم يزدد عن الله إلاّ بعداً، وعن المنهج القويم إلاّ ضلالا، فيضيق صدره عن قبول الحقّ.

ولا يخفى أنّ المسلم الحقيقي يسعى دائماً لأنّ يكون طاهر النفس، سليماً في سجاياه، وكما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً﴾[٣٦].

فكيف يحسد المسلم . أو بالأحرى: العاقل . وهو يعلم أنّ تفوّق الآخرين عليه، ليس إلاّ من فضل الله وحسن بلائه؟ ناهيك إنّه إذا شكر وصبر كان له الأجر، وإن حسد وأدبر، كانت عاقبة أمره شرّاً والعياذ بالله. بل إنّ العاقل لا يقصد الشرّ، لأنّه من يزرع الشرّ لا يحصد سوى الشرّ.

ولذا تجد أنّ صاحب الضمير النظيف في أكبر راحة، وخير سعادة، وذلك لأنّ سلامة الصدر تعود أولا وبالذات إلى الإنسان السليم، فتراه يعمل ويفرغ ، ويذهب ويأتي، ويجتمع ويفترق.. مثلوج الفؤاد ، فارغ البال، خفيف المنكب عن أعباء الحسد والحقد والغلّ والاعتلاء.

وذلك كما قال الشاعر:

اصبر على حسد الحسود فإنّ صبرك قاتله

النار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله[٣٧]

فما أجمل هذا التعبير حيث شبّه الحسد بالنار التي تأكل صاحبها، وكذا الحال بالنسبة للغلّ والحقد والكبر إذ أنّ كلّها نيران محرقة، لا تبقي ولا تذر.

وكما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «قلب المؤمن أجرد. فيه سراج يزهر، وقلب الكافر أسود منكوس»[٣٨].

فالقلب السليم كالتربة النقيّة ينبت فيها كل خير، فيؤتي أكله الشهيّة. أمّا القلب المريض فهو كالتربة المالحة، لا تكون إلاّ عفنة مجّة، تتكوّن فيه الجراثيم ، وتنتشر منه الأوبئة... ففساد الأعضاء وصلاحها ناجمة من صلاح القلب وفساده .

وكما قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ منزلة القلب من الجسد: بمنزلة الإمام من الناس الواجب الطاعة عليهم. ألا ترى: إنّ جميع جوارح الجسد شُرط للقلب، وتراجمة له، ومؤدّية عنه: الأُذنان، والعينان، والأنف، والفم، واليدان ، والرجلان، والفرج؟ فإنّ القلب إذا همّ بالنظر فتح الرجل عينيه، وإذا همّ بالاستماع حرّك أُذنيه وفتح مسامعه فسمع، وإذا همّ القلب بالشمّ استنشق بأنفه، فأدّى تلك الرائحة إلى القلب، وإذا همّ بالنطق تكلّم باللسان، وإذا همّ بالحركة سعت الرجلان، وإذا همّ بالشهوة تحرّك الذكر. فهذه كلّها مؤدّية عن القلب بالتحريك..»[٣٩].

---

(٣٦) سورة محمد: ١٧.

(٣٧) بحار الأنوار: ج٧٠ ص٢٥٨.

(٣٨) بحار الأنوار: ج٦٧ ص٥٩ ح٣٩.

(٣٩) بحار الأنوار: ج٥٨ ص٣٠٤ ح٩، علل الشرائع: ج١ ص١٠٩ ح٨.

ومن البديهي: أنّ سلامة القلب لا تحصل عبثاً واعتباطاً، بل تحتاج إلى مراقبة مستمرّة، وكدح دائم، ومواظبة طويلة، وتنقية إثر تنقية.

هذا وللقلب تعاريج ومنعطفات، ربما يظن الشخص: أنّها صفاء نفسه عن كدر الرذيلة، حتّى إذا طغى في القلب عرق الحسد أو الحقد أو.. أو.. حينها يصعب على المرء امتلاك زمام نفسه. فقد تنبعث الحركة عن النفس عفواً، فيظنّ الشخص فيها خيراً، ولكنّها ـ في واقع الأمر ـ ليس إلاّ تنفّس حقد مكتوم، أو حب جاه مخمود، أو نوايا شرّ مكظوم.. وحقّاً إنّ مرض القلب من أخطر الأمراض، إذ أنّه إذا فسد يفسد الجسد كلّه، فهو كالسرطان الذي ينبت في اللحم ثمّ لا يزال يمدّ يده ورجله إلى سائر الأعضاء، حتّى إذا صادف موضعاً حسّاساً أهلك المريض وأودى بحياته العزيزة.

بل إنّ مرض القلب يفسد العاجلة والآجلة، فكل مرض لايعدّ شيئاً بالنسبة إليه، حتّى وإن أودى بروح الحي، فأُلحد مقبوراً.

ولذلك فإنّ رسول الله ﷺ قال في حديث له: «في الإنسان مضغة، إذا هي سلمت وصحّت، سلم بها سائر الجسد، فإذا سقمت، سقم لها سائر الجسد وفسد، وهي القلب»(٤٠).

وقد أوصى أمير المؤمنين عليه السلام ابنه، فقال: «يا بني! إنّ من البلاء الفاقة، وأشدّ من ذلك مرض البدن، وأشدّ من ذلك مرض القلب، وإنّ من النعم سعة المال، وأفضل من ذلك صحّة البدن، وأفضل من ذلك تقوى القلوب»(٤١).

وعلى أي حال: فصاحب القلب السليم في أعظم النعم، فهو يرضى بالقسمة ولا يحزن، ويعلم أنّ ما آتى الله غيره لحكمة فلا يحسد، ويدري أنّ عزّ الدنيا لا ينفع فلا يتكبّر، ويتيقّن بأنّ الأعمال الخالصة هي المقبولة فلا يرائي.

وكما أنّ مرض القلب الصنوبري يسبّب ضعفاً عاماً في جميع المشاعر، وصاحبه عادةً ما يكون معرّضاً لكارثة السكتة، كذلك مرض القلب الروحي ، فهو يوجب خبالا شاملا في الأعضاء، إذ أنّ اضطراب الحواس دليل على اضطراب القلب.

فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «لقد علّق بنياط هذا الإنسان بضعة هي أعجب ما فيه وذلك القلب، وذلك أنّ له موادَّ من الحكمة وأضداداً من خلافها، فإن سنح له الرجاء أذلّه الطمع، وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص، وإن ملكه اليأس قتله الأسف، وإن عرض له الغضب اشتدّ به الغيظ، وإن أسعده الرضى نسي التحفّظ، وإن غاله الخوف شغله الحذر، وإن اتّسع له الأمر استلبته الغِرّة، وإن أفاد مالا أطغاه الغنى، وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع، وإن عضّته الفاقة شغله البلاء، وإن جهده الجوع قعد به الضعف، وإن أفرط به الشبع كظّته البطنة، فكلّ تقصير به مضرّ، وكل إفراط له

---

(٤٠) بحار الأنوار: ج٦٧ ص٥٠ ح٤، روضة الواعظين: ج٢ ص٤١٣.

(٤١) بحار الأنوار: ج٦٧ ص٥١ ح٨، أمالي الطوسي: ص١٤٦ ح٢٤٠.

مفسد»[٤٢].

يبقى القول: إنّ سليم القلب سليم الأعضاء والمشاعر، ومريض القلب مريض الأعضاء والمشاعر. ولا يختلف اثنان أنّ السليم ـ أي شخص كان ـ أفضل من المريض.

طهارة الجسد

ومن صفات المسلم الحميدة هي طهارة الجسد من المنفّرات، ونظافة البدن عن القاذورات.

فقد اهتمّ الإسلام بالنظافة أكبر اهتمام، حتّى قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «النظافة من الإيمان»[٤٣].

نعم فالنظافة من الإيمان، والقذارة ليست منه، كما أنّ غير النظيف ليس بكامل الإيمان!

ولا يخفى أنّ النظافة على شُعب منها: نظافة الجسد، ونظافة اللباس، ونظافة الدار، ونظافة البلد.. وكلّها مطلوبة قد ندب إليها الإسلام، وحثّ المسلمين عليها، بل إنّ الإسلام ربط بين الفطرة الإنسانية التي هي من مقوّمات الحياة وبينها[٤٤].

ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «خمس من الفطرة: تقليم الأظفار، وقصّ الشارب، ونتف الإبط، وحلق العانة والاختتان»[٤٥].

إنّ من طبيعة الإنسان التنفّر من القذارة، وذلك مثلما يتنفّر من الجوع والعرى، فهو أمر فطري قد فطر الله تعالى الناس عليه.

وقد أشار الإمام الكاظم عليه السلام إلى بعض موارد النظافة الجسدية فقال عليه السلام: «خمس من السنن في الرأس، وخمس في الجسد، فأمّا التي في الرأس: فالسواك ، وأخذ الشارب، وفرق الشعر، والمضمضة، والاستنشاق. وأمّا التي في الجسد: فالختان، وحلق العانة، ونتف الإبطين، وتقليم الأظفار، والاستنجاء»[٤٦].

ومن الواضح: إنّ النظافة مظهر من مظاهر النفس، فالنفس النظيفة تبعث على النظافة، والنفس القذرة تبعث على القذارة، والنظافة هي جزء من أجزاء الجمال، فلا يتم الجمال إلاّ بها، وقد تكسب القبيح جمالاً ورونقاً.

ففي الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ الله جميل، يحبّ الجمال»[٤٧].

---

(٤٢) نهج البلاغة: ص٤٨٧ ق ح١٠٨.

(٤٣) مستدرك الوسائل: ج١٦ ص٣١٩ ح٢٠٠١٦، بحار الأنوار: ج٥٩ ص٢٩١، طب النبي: ص٢١.

(٤٤) راجع كتاب (فقه النظافة) للمؤلّف دام ظله.

(٤٥) وسائل الشيعة: ج٢ ص١٣٣ ح١٧١٨، بحار الأنوار: ج٧٣ ص٦٧ ح٢، الخصال: ج١ ص٣١٠ ح٨٦.

(٤٦) وسائل الشيعة: ج٢ ص١١ ح١٣٢٢، بحار الأنوار: ج٧٣ ص٦٧ ح١، الخصال: ج١ ص٢٧١ ح١١ .

(٤٧) الكافي: ج٦ ص٤٣٨ ح١، وسائل الشيعة: ج٤ ص٤٥٥ ح٥٧٠٤.

وعن رسول الله ﷺ: «بئس العبد القاذورة»(٤٨).

وقد نهى نبي الإسلام ﷺ عن القذارة بعبارات مختلفة وألفاظ متنوّعة وأمثلة متعدّدة، وكان هو بنفسه مثالاً حيّاً للنظافة في حلّه ومرتحله.

فعن رسول الله ﷺ قال: «لا يطولن أحدكم شاربه، ولا عانته، ولا شعر إبطه، فإنّ الشيطان يتّخذها مخابئ يستتر بها»(٤٩).

إذن . وكما يستفاد من الحديث . فإنّ الشيطان قذر وهو يأمر بالقذارة، ويسكن فيها، ويألفها، ولذا فإنّ كلّ عمل قذر وقول قذر ومظهر قذر، فهو منه.

وبالمقابل فإنّ الله تعالى جميل طاهر، يأمر بالجمال والطهارة، ويحبّهما، وقد نصّ بنفسه تعالى على ذلك فقال في كتابه الكريم: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾(٥٠).

ولقد جعل الإسلام النظافة من شرائط الإيمان، حتّى قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يترك حلق عانته فوق الأربعين يوماً، فإن لم يجد فليستقرض بعد الأربعين ولايؤخّر»(٥١).

ولا يخفى ما في مقارنة رسول الله ﷺ بين النظافة وبين الإيمان بالله واليوم الآخر، من دلالة واضحة على اهتمام الشارع المقدّس الشديد بها، رغم أنّ العيون لا تلمحها، فكيف بالنظافة في المواضع الظاهرة؟

ناهيك عن قوله ﷺ: فإن لم يجد فليستقرض، والحال أنّ القرض مكروه في الشريعة إلاّ عند الضرورة.

إنّها واقعاً تأكيدات تستجلب النظر، وتبعث على التأمّل، ولا عجب بعد ذلك إن عدّ الإمام الرضا عليه السلام التنظيف من أخلاق الأنبياء عليهم السلام، حيث قال عليه السلام: «من أخلاق الأنبياء: التنظّف والتطيّب وحلق الشعر وكثرة الطروقة»(٥٢).

نعم، إنّ الأنبياء عليهم السلام إلى جانب كونهم مأمورين بتبليغ شرائع الله الروحية، وإنّهم من أكثر الناس تمسّكاً بالمعنويات، تجدهم متمسّكين بالجوانب الجسدية، بحيث إنّهم لا يغفلون عن أصغر صغيرة تزيد الإنسان نظافة وجمالا ، حتّى لو كانت شعرة في الأنف.

فلقد ورد عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «ليأخذ أحدكم من شاربه، والشعر الذي في أنفه، وليتعاهد

---

(٤٨) الكافي: ج٦ ص٤٣٩ ح٦، وسائل الشيعة: ج٥ ص٦ ح٥٧٤٣.

(٤٩) وسائل الشيعة: ج٢ ص١٤٠ ح١٧٤٢، مستدرك الوسائل: ج١ ص٤٠٥ ح٩٩٩، الجعفريات: ص٢٩.

(٥٠) سورة البقرة: ٢٢٢.

(٥١) وسائل الشيعة: ج٢ ص٧٢ ح١٥١٧، بحار الأنوار: ج٧٣ ص٨٩ ح٤، الخصال: ج٢ ص٥٣٨ ح٥.

(٥٢) بحار الأنوار: ج١١ ص٦٦ ح١٣، قصص الأنبياء: ص١٠.

نفسه، فإنّ ذلك يزيد في جماله»[٥٣].

أخذ الشعر وتسريحه

وقد اهتمّ الإسلام بشعر الرأس واللحية ـ لمن كانت له ـ اهتماماً كبيراً فأمر بتمشيطهما حتّى لا يبقى شعثاً كريه المنظر.

ففي الحديث الشريف «أنّ رسول الله ﷺ كان يتمشّط ويرجّل رأسه.. وتُرجّله نساؤه.. وكان يضع المشط تحت وسادته..»[٥٤].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «مشط الرأس يذهب بالوباء ومشط اللحية يشدّ الأضراس»[٥٥]. وعن النبي ﷺ: «الشعر الحسن من كسوة الله تعالى فأكرموه»[٥٦].

وقال ﷺ: «من اتّخذ شعراً فليحسن ولايته أو لِيَجُزَّهُ»[٥٧].

استحباب السواك

كان رسول الله ﷺ يؤكّد على السواك تأكيداً بالغاً حتّى أنّه قال: «في السواك اثنتا عشرة خصلة: مطهّرة للفم، ومرضاة للربّ، ويبيّض الأسنان ، ويذهب بالحفر، ويقلّل البلغم، ويشهّي الطعام، ويضاعف الحسنات، وتصاب به السنة، وتحضره الملائكة، ويشدّ اللثة، وهو يمرّ بطريق القرآن، وركعتان بسواك أحبّ إلى الله عزّوجلّ من سبعين ركعة بغير سواك»[٥٨].

فضلا عن ذلك فقد كان ﷺ يبالغ في تنظيف الفم، حتّى أنّه قال: «أفواهكم طرق من طرق ربّكم، فنظّفوها بالسواك»[٥٩].

---

(٥٣) وسائل الشيعة: ج٢ ص١١٨ ـ ١١٩ ح١٦٦٤، بحار الأنوار: ج٧٣ ص١٠٩ ح١، قرب الإسناد: ج١ ص٣٢.

(٥٤) بحار الأنوار: ج١٦ ص٢٤٨، مكارم الأخلاق: ص٣٣.

(٥٥) وسائل الشيعة: ج٢ ص١٢٤ ح١٦٨٤، من لا يحضره الفقيه: ج١ ص١٢٨ ح٣١٩، بحار الأنوار: ج٧٣ ص١١٧ ح٤، مكارم الأخلاق: ص٧٠.

(٥٦) من لا يحضره الفقيه: ج١ ص١٢٩ ح٣٢٧، وسائل الشيعة: ج٢ ص١٢٩ ح١٧٠٤، مستدرك الوسائل: ج١ ص٤١٢ ح١٠٢٢.

(٥٧) الكافي: ج٦ ص٤٨٥ ح٢، من لا يحضره الفقيه: ج١ ص١٢٩ ح٣٢٦، وسائل الشيعة: ج٢ ص١٢٩ ح١٧٠٣.

(٥٨) وسائل الشيعة: ج٢ ص٢٠ ح١٣٥٨، بحار الأنوار: ج٧٣ ص١٢٩ ح١٣، الخصال: ج٢ ص٤٨ ح٥٢.

(٥٩) بحار الأنوار: ج٧٣ ص١٣٠ ح١٩، صحيفة الإمام الرضا عليه السلام: ص٥٤ ح٦٤.

اتّخاذ الطيب

وكما أنّ تنظيف الجسد محبوب مرغوب فيه، كذلك تطييبه، حتّى يرغب الناس في المجالسة، ولا يتنفّرون من رائحته الكريهة إثر الاجتماعات المهمّة غرار صلاة الجماعة وغيرها.

ففي الحديث أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يتطيّب بالمسك والعنبر، وبالغالية، وربما تطيّبه بها نساؤه بأيديهنّ، وكان يكثر من الطيب حتّى أنّ الناس يعرفوه في الليل المظلم من ريحه الطيّب(٦٠).

وقد حثّ الإسلام المسلمين أبلغ الحثّ على ذلك، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «لله حقّ على كل محتلم في كل جمعة: أخذ شاربه وأظفاره، ومسّ شيء من الطيب»(٦١).

استحباب الاستحمام

ومن المستحبّات الإسلامية المهمّة هو الاستحمام، لما فيه من إزالة الوسخ، والتطهّر من جميع الأدران، ولذا فإنّ الإسلام أوجب في كثير من الأحيان غسل جميع البدن، كما ندب إليه في العديد من الأوقات، وعند كثير من الأفعال، وليس ذلك إلاّ حفظاً للنظافة، وإزالة للقذارة. ففي الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «نعم البيت الحمّام.. تذكّر فيه النار، ويذهب بالدرن»(٦٢).

وقد بلغ من حرص الإسلام على النظافة العامّة للجسد مبلغاً عظيماً بحيث ندب إلى الحمّام في العديد من الأحاديث الشريفة، ومنها ما عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال: «ثلاثة يسمن، وثلاثة يهزلن، فأمّا الذي يسمن: فإدمان الحمّام، وشمّ الرائحة الطيّبة، ولبس الثياب الليّنة...» (٦٣).

نظافة الثياب والملابس

وإلى جانب تأكيد الإسلام على تنظيف الجسد وتجميله، كانت له تأكيدات أُخرى على تنظيف الثياب وتحسينها، فقد اهتمّ الإسلام بذلك اهتماماً بالغاً، وذلك حفظاً على إناقة المسلم وجماله.

فعن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم إنّه قال: «من اتّخذ ثوباً فلينظّفه»(٦٤).

---

(٦٠) راجع مستدرك الوسائل: ج١ ص٤١٩ ح١٠٤٧ و١٠٤٨، دعائم الإسلام: ج٢ ص١٦٦ ح٥٩٦، مكارم الأخلاق: ص٤١.

(٦١) بحار الأنوار: ج٥٦ ص٣٣ ح٨، الخصال: ج٢ ص٣٩٢ ح٩١.

(٦٢) الكافي: ج٦ ص٤٩٦ ح١، من لا يحضره الفقيه: ج١ ص١١٥ ح٢٣٧، وسائل الشيعة: ج٢ ص٣٠ ح١٣٨٦، بحار الأنوار: ج٧٣ ص٧٧.

(٦٣) وسائل الشيعة: ج٢ ص٣٢ ح١٣٩٤، بحار الأنوار: ج٦٣ ص٥٩ ح٨، الخصال: ج١ ص١٥٥ ح١٩٤.

(٦٤) الكافي: ج٦ ص٤٤١ ح٣، وسائل الشيعة: ج٥ ص١٤ ح٥٧٦٤، مستدرك الوسائل: ج٣ ص٢٣٨ ح٣٤٧٦.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «النظيف من الثياب يذهب الهمّ والحزن، وهو طهور للصلاة»[٦٥].

وفي حديث آخر عنه عليه السلام: «غسل الثياب يذهب الهمّ والحزن، وهو طهور للصلاة»[٦٦].

ولسائل أن يسأل هنا فيقول: ما هي علاقة الغسل بذهاب الهمّ والحزن؟ فيقال في جوابه: لعلّ الوجه في ذلك هو أنّ الشخص إذا نظر إلى ثوبه فرآه قذراً أسف وحزن، وذلك لانطواء فطرته على الابتهاج بالنظيف، والكآبة من القذر، فإنّ العين تحتاج إلى المتعة، كما أنّ الأُذن وسائر الحواس تحتاج إليها. ومتعة العين في المناظر الحسنة، والمباهج الجميلة. وليس ما ورد في الحديث: «ثلاثة يذهبن الحزن: الماء والخضرة والوجه الحسن»[٦٧] إلاّ إشارة إلى هذا الأمر الفطري. إذاً فالثوب النظيف بنفسه، أو بالغسل، من مذهبات الحزن، ومن أسباب الفرح والسرور.

مضافاً إلى ذلك ما ورد من الدليل على أنّ الله تعالى لا يقبل من الصلاة إلاّ ما كانت في الثياب الطاهرة، بل إنّه تعالى يزيد ثواباً لمن صلّى في ثوب نظيف، بل تذهب الشريعة إلى أبعد من ذلك، ففي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «الثوب النقي يكبت العدو»[٦٨]، ولعلّ الوجه فيه هو أنّ العدو إذا نظر إلى الرجل، وهو قذر وسخ الثوب ازدراه، ومن ازدرى شخصاً تجرّأ عليه، بخلاف الثوب النقي النظيف، فهو يعظّم الرجل في الأعين، وبذلك يتوازن الأكفّاء، إن لم ترجّح كفّة النظيف على عدوّه.

بل. وكما يستفاد من الأخبار. أنّ الله يحبّ أن يرى الثوب الثمين على بدن عبده الذي أنعم عليه، يقول ابن القدّاح: كان أبو عبد الله عليه السلام متكئاً عليّ أو قال على أبي فلقيه عباد بن كثير البصري وعليه ثياب مروية[٦٩] حسان، فقال : يا أبا عبد الله عليه السلام! إنّك من أهل بيت النبوّة، وكان أبوك وكان! فما هذه الثياب المروية عليك فلو لبست دون هذه الثياب؟! فقال له أبو عبد الله عليه السلام: ويلك يا عباد! ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ﴾[٧٠] إنّ الله عزوجل إذا أنعم على عبد نعمة، أحبّ أن يراها عليه، ليس به بأس..[٧١].

---

(٦٥) الكافي: ج٦ ص٤٤٤ ح١٤، وسائل الشيعة: ج٥ ص١٤ ح٥٧٦٣.

(٦٦) وسائل الشيعة: ج٥ ص١٤ ح٥٧٦٥، مكارم الأخلاق: ص ٤٠.

(٦٧) بحار الأنوار: ج٥٩ ص١٤٤ ب٥٧ ح١. روضة الواعظين: ج٢ ص٣٠٨.

(٦٨) الكافي: ج٦ ص٤٤١ ح١، وسائل الشيعة: ج٥ ص١٤ ح٥٧٦٢، مستدرك الوسائل: ج٣ ص٢٣٨ ح٣٤٧٤.

(٦٩) مروية: مرو بلدة من بلاد خراسان والثوب منسوب لها. مجمع البحرين: مادّة مري.

(٧٠) سورة الأعراف: ٣٢.

(٧١) الكافي: ج٦ ص٤٤٣ . ٤٤٤ ح١٣، وسائل الشيعة: ج٥ ص١٦ ح٥٧٦٩، بحار الأنوار: ج٤٧ ص٣٦١ ح٧٣.

نظافة المنازل

وتصل النوبة . بعد تنظيف الجسد والثياب . إلى تنظيف البيوت والمساكن ، والفنادق، والشوارع، والمدن، وما إليها، فقد رغّب الإسلام فيها، كما رغّب في تنظيف الجسد والثياب، لأنّ الملاك في الكل واحد. فعن رسول الله ﷺ: «لا تبيّتوا القمامة في بيوتكم، وأخرجوها نهاراً، فإنّها مقعد الشيطان»(٧٢).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «نظّفوا بيوتكم من حوك العنكبوت، فإنّ تركه في البيت يورث الفقر»(٧٣).

أي: إنّ وجود القمامة، وحوك العنكبوت في البيت، يورثان الفقر في الدنيا، فضلا عن كونها مقعداً للشيطان.

وعلى أيّة حال: فإنّ الدين يحارب القذارة بجميع مظاهرها، ولو كان منديلا غمراً(٧٤).

ولذا قال رسول الله ﷺ: «لا تؤووا منديل اللحم في البيت، فإنّه مربض الشيطان، ولا تؤووا التراب خلف الباب، فإنه مأوى الشيطان»(٧٥).

وفضلا عن ذلك كلّه فإنّ القذارة من عادات اليهود فلا ينبغي للمسلم . وهو يؤمن بالله واليوم الآخر . أن يتشبّه بمن يعادي الله. ولذا قال رسول الله ﷺ: اكنسوا أفنيتكم ولا تشبّهوا باليهود.(٧٦).

وقد أجمل الإمام الصادق عليه السلام الميزان الذي يلزم أن يزن الإنسان المسلم نفسه به، فقال عليه السلام:

«إنّ الله يحبّ الجمال والتجمّل، ويكره البؤس والتباؤس، فإن الله عزّوجلّ إذا أنعم على عبد نعمة، أحبّ أن يرى عليه أثرها. قيل: وكيف ذلك ؟ قال: ينظّف ثوبه، ويطيّب ريحه، ويجصّص داره، ويكنس أفنيته ، حتّى إنّ السراج قبل مغيب الشمس ينفي الفقر ويزيد في الرزق»(٧٧).

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة المؤكّدة على النظافة والطهارة ...

ولو جمعت الآثار التي وردت عن الرسول الأعظم ﷺ والأئمّة الأطهار عليهم السلام بصدد النظافة والجمال من غُسل ووضوء وغَسل وتطهير وتطيّب وتنوير وكنس وتنظيف.. لاحتاجت إلى العديد من

---

(٧٢) من لا يحضره الفقيه: ج٤ ص٣ ح٤٩٦٨، وسائل الشيعة: ج٥ ص٣١٨ ح٦٦٦٣، أمالي الصدوق: ص٤٢٢ ح١.

(٧٣) وسائل الشيعة: ج٥ ص٣٢٢ ح٦٦٧٤، بحار الأنوار: ج٧٣ ص١٧٥ ح٣، قرب الإسناد: ص٢٥.

(٧٤) أي الدسم، راجع لسان العرب: مادّة غمر.

(٧٥) وسائل الشيعة: ج٥ ص٣١٨ ح٦٦٦٤، بحار الأنوار: ج٦٠ ص١٩٩ ح١٥، علل الشرائع: ج٢ ص٥٨٢ ح٢٣.

(٧٦) الكافي: ج٦ ص٥٣١ ح٥، وسائل الشيعة: ج٥ ص٣١٧ ح٦٦٥٧، المحاسن: ج٢ ص٦٢٤ ح٧٦.

(٧٧) وسائل الشيعة: ج٥ ص٧ ح٥٧٤٦، بحار الأنوار: ج٧٦ ص٣٠٠ ح٨، مكارم الأخلاق: ص٤١.

المجلّدات[٧٨].

(٧٨) راجع كتاب (فقه النظافة) للمؤلّف دَامَتْ بَرَكَاتُهُ.

الفصل الثاني

- في آداب العبادة
- العبادة وتهذيب النفس
- الصلاة معراج المؤمن
- الصوم رياضة المتّقين
- الحجّ مؤتمر الوحدة
- الجهاد ورفع الأغلال
- الحقوق المالية وتآلف المجتمع
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- التولّي والتبرّي

في آداب العبادة

إنّ الأعمال العبادية في الشريعة الإسلامية، ولو ظهرت . بادي النظر . أُموراً روحية لا علاقة لها بالفضيلة، فهي صلاة لله، وحجّ لبيت الله، وزكاة تعطى قربة إلى الله، وصوم يراد به وجه الله، إلاّ أنّها لدى الدقّة من أنبل الأخلاق السامية. وقد عيّن النبي صلى الله عليه وآله وسلم صبغتها العامّة التي شرعت لأجلها فقال: «إنّما بعثت لأُتمم مكارم الأخلاق»[٧٩]. فهي عبادة إلى جنب كونها من مكارم الأخلاق. بل أزيد من ذلك، فهي تطهير روحي، وعبادة، وتنظيم للاجتماع.. والآن لنلقي نظرة خاطفة إلى حقائق العبادة، حتّى نرى كيف أنّها من مكارم الأخلاق.

العبادة وتهذيب النفس

إنّ شرائع السماء كلّها تقصد شيئاً واحداً، وهو تهذيب النفس وتشذيبها، والتهذيب يكون بمثابة اللبنة الأُولى في بناء المجتمع الفاضل، فمن خلال التهذيب ترتقي النفس في مدارج الكمال، فينتظم الكون، ومن ثمّ تصلح الدنيا والأُخرى.

وفي واقع الأمر إنّ التهذيب ليس إلاّ تطهيراً للروح، وتعديلاً لخطّ المسير كي لا ينحرف الإنسان يميناً وشمالا.

بل إنّ معرفة الله تعالى خالق الكون ومعرفة سفرائه البررة، والاعتقاد بالعدل والمعاد وسائر ما جاءت به الشرائع كلّها من مكارم الأخلاق التي حصر النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم بها حكمة بعثته المباركة فقال: «إنّما بعثت لأُتمّم مكارم الأخلاق»[٨٠].

وحيث بلغ بنا البحث حول دور العبادات في تهذيب النفس وتشذيبها، والصعود بها إلى قمم الكمال والجمال فلا بأس أن نتطرّق إلى البعض منها باختصار:

الصلاة معراج المؤمن

من الأهداف المهمّة التي شرّعت من أجلها الصلاة هو تطهير القلب وتهذيب النفس، والتذكير بالفضيلة، والتنزّه عن الرذيلة.

فهي تبتدأ بالتكبير لله المنعم، وتنتهي بالسلام على البشر والملائكة، وهو فضيلة.

وهي أيضاً تذكير بنعم الخالق: ربّ العالمين الذي بيده ملكوت كل شيء ، فضلا عن كونها تنزيهاً لله عزوجل.

---

(٧٩) مستدرك الوسائل: ج١١ ص١٨٧ ح١٢٧٠١، بحار الأنوار: ج٦٨ ص٣٨٢، مكارم الأخلاق: ص٨.

(٨٠) بحار الأنوار: ج٦٨ ص٣٨٢، مستدرك الوسائل: ج١١ ص١٨٧ ح١٢٧٠١.

فإنّ من يعلم هذا ويتوجّه إلى هذا الملك القدير ويكرّر اللقاء معه كل يوم خمس مرّات فإنّ نفسه بلا شكّ وريب ستنصهر وتخلص من الكدورات، وبذلك يستقيم مسلكه ويبتعد عن الآثام والرذيلة. ولذا ورد في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾(٨١) وورد: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾(٨٢) وورد: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَةِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾(٨٣).

وقد مثّل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم الصلاة بالنهر الجاري الذي يغتسل الشخص فيه كل يوم خمس مرّات، فلا درن معها ولا قذارة، بل إنّها طهارة ونظافة، وتعديل سلوك، ومعرفة حقائق(٨٤).

إنّها حقّاً مكرمة من مكارم الأخلاق، وفضيلة من الفضائل. وإلى جنب ذلك كلّه فهي حسّ بالوحدة الإنسانية الكبرى حيث يرى المصلّي نفسه واحداً من البشر، يطلب لهم الخير من ربّ العالمين، ويسأل لهم الهداية من خالق الكون أجمعين، وذلك عندما يردّد المصلّي في كل صلاة يصلّيها: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾(٨٥) وعندما يقول في كل مرّة: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين».

الصوم رياضة المتّقين

إنّ الصوم قربة وتطهير ... فهو قربة إلى الله تعالى، وزلفى لديه لأنه خاص به، وإلاّ فما يمنع الشخص من الأكل والشرب في الخلاء حيث لا يراه أحد، ولا يعلم به الآخرون ؟

أليس أنّ الدافع الوحيد للالتزام بواجبات الصوم والاجتناب عن محرّماته هو الشعور بمراقبة الله تعالى ومحاسبته له؟ فمن خلال الصوم يبتعد الإنسان عن الرذيلة ويصل إلى غايته العظمى وهي رضا الله تعالى، وكما في الحديث القدسي: «الصوم لي..»(٨٦).

وهو تطهير للروح، وصقل له، لأنّ الصوم جهاد مع النفس، ورياضة تتقوّى بها النفس على تحمّل المكاره، والصبر عند الشدائد.

وإلاّ فما معنى أنّ الإنسان يمتنع عن الأكل وهو يشتهيه، ويرتدع عن الملامسة ونفسه تتوق إليها ؟ وبالتأكيد فإنّ الصائم إذا تحمّل آلام الجوع والعطش فإنّ روحه تطهر ونفسه تسمو، ويقترب بكلّه من الفقراء فيحسّ بألمهم، ويدرك ما يدركون، فيرقّ لهم ويعطف عليهم، فعن حمزة بن محمد قال: كتبت إلى

---

(٨١) سورة العنكبوت: ٤٥.

(٨٢) سورة البقرة: ٤٥.

(٨٣) سورة الأنبياء: ٧٣.

(٨٤) راجع مستدرك الوسائل: ج٣ ص١٥ ح٢٨٩٨، أمالي الشيخ المفيد: ص١٨٩ ح١٦.

(٨٥) الفاتحة: ٦.

(٨٦) الكافي: ج٤ ص٦٣ ح٦، من لا يحضره الفقيه: ج٢ ص٧٥ ح١٧٧٣.

أبي محمّد عليه السلام لِمَ فرض الله الصوم، فورد الجواب: «ليجد الغني مضض الجوع فيحنّ على الفقير »[٨٧].

وكتب أبو الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام إلى محمّد بن سنان فيما كتب من جواب مسائله فقال:

«علّة الصوم لعرفان مسّ الجوع والعطش، ليكون ذليلا مستكيناً مأجوراً محتسباً صابراً، ويكون ذلك دليلا له على شدائد الآخرة، مع ما فيه من الانكسار له عن الشهوات، واعظاً له في العاجل، دليلا على الآجل ليعلم شدّة مبلغ ذلك من أهل الفقر والمسكنة في الدنيا والآخرة»[٨٨].

الحجّ مؤتمر الوحدة الإسلامية

جعل الله الحجّ مؤتمراً لبني البشر ومجمعاً لوحدتهم، فيقصدون بيت الله الحرام من كلّ الأقطار، تجمعهم كلمة التقوى وراية الهدى، فلا عرب ولا عجم، ولا شرق ولا غرب، ولا تفاضل ولا تمايز بينهم.

فهو كالعمود الفقري في الإنسان، وكما أنّ العمود الفقري يحفظ الإنسان من الزمانة والإقعاد، فكذلك الحج يحفظ المجتمع عن التصدّع والتفكّك، فضلا عن كونه سفراً يمتّع فيه الإنسان، ويطهّر نفسه فيه من الملذّات والذنوب، ويتذكّر خلاله يوم العرض الأكبر.

وفي الحج يجتمع الناس في صعيد واحد، قد أحرموا جميعاً واجتنبوا عن لوازم الجسم، كلّهم بلون واحد وفي مكان واحد: عرفات، ومزدلفة، ومنى.. وكلّهم أمام ربّ واحد.

فهل هناك فضيلة أحسن منها؟!

ففي الحديث عن محمد بن سنان أنّ أبا الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام كتب إليه فيما كتب من جواب مسائله:

«إنّ علّة الحجّ الوفادة إلى الله تعالى، وطلب الزيادة والخروج من كل ما اقترف، وليكون تائباً ممّا مضى، مستأنفاً لما يستقبل، وما فيه من استخراج الأموال وتعب الأبدان، وحظرها عن الشهوات واللذّات، والتقرّب في العبادة إلى الله عزوجل، والخضوع والاستكانة والذلّ، شاخصاً في الحرّ والبرد، والأمن والخوف دائباً في ذلك دائماً، وما في ذلك لجميع الخلق من المنافع والرغبة والرهبة إلى الله سبحانه وتعالى، ومنه ترك قساوة القلب، وخساسة الأنفس، ونسيان الذكر، وانقطاع الرجاء والأمل، وتجديد الحقوق، وحظر الأنفس عن الفساد، ومنفعة من في المشرق والمغرب، ومن في البرّ والبحر، ممّن يحجّ وممّن لا يحجّ، من تاجر وجالب، وبائع ومشتري، وكاسب ومسكين، وقضاء حوائج أهل الأطراف والمواضع

---

(٨٧) الكافي: ج٤ ص١٨١ ح٦، من لا يحضره الفقيه: ج٢ ص٧٣ ح١٧٦٨، وسائل الشيعة: ج١٠ ص٨ ح١٢٧٠٠.

(٨٨) من لا يحضره الفقيه: ج٢ ص٧٣ ح١٧٦٧، وسائل الشيعة: ج١٠ ص٨ ح١٢٦٩٩، علل الشرائع: ج٢ ص٣٧٨ ح١.

الممكن لهم الاجتماع فيها كذلك ليشهدوا منافع لهم»[٨٩].

الحقوق المالية وتآلف المجتمع

إنّ في مقدّمة الأُمور المهمّة التي تشدّ أواصر المجتمع وتأخذ بيده نحو التقدّم والسداد هي الحقوق والواجبات المالية: مثل الزكاة والخمس والفطرة والكفّارة، فإنّها تنفي الطبقية البغيضة من المجتمع، وتقرّب بين الثري والمعدم، وتؤلّف بين الغني والفقير، وتنشر الحبّ والوئام بين الأفراد، وترفع المستوى المعيشي للناس، الأمر الذي يسدّ الأبواب في وجه بواعث الانحراف، وذلك كما في الحديث الشريف: «من لا معاش له، لا معاد له». من جانب آخر فإنّ مثل هذه الأُمور هي مدعاة لنبذ الشحّ، وطهارة النفس، وترقيق المشاعر الطيّبة، والسعي الدائب من أجل التحلّي بالسخاء والعطف على المستضعفين. فقد ورد عن فاطمة الزهراء (سلام الله عليها) في خطبتها المعروفة التي خطبتها بعد أبيها رسول الله ﷺ في المسجد وهي تطالب بحقّها المغصوب، وحقّ بعلها أمير المؤمنين عليه السلام المسلوب، أي: تطالب بفدك والخلافة، أنّها عليها السلام قالت فيما قالته: «والزكاة تزكية للنفس ونماء في الرزق»[٩٠].

وقال أبو الحسن عليه السلام: «إنّ الله عزّوجلّ وضع الزكاة قوتاً للفقراء وتوفيراً لأموالكم»[٩١].

وعن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال قيل لأبي عبد الله عليه السلام لأي شيء جعل الله الزكاة خمسة وعشرين في كل ألف ولم يجعلها ثلاثين فقال: «إنّ الله عزّوجلّ جعلها خمسة وعشرين أخرج من أموال الأغنياء بقدر ما يكتفي به الفقراء ولو أخرج الناس زكاة أموالهم ما احتاج أحد»[٩٢].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من منع قيراطاً من الزكاة فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً»[٩٣].

وكتب الرضا علي بن موسى عليه السلام إلى محمّد بن سنان فيما كتب إليه من جواب مسائله: أنّ علّة الزكاة من أجل قوت الفقراء وتحصين أموال الأغنياء لأنّ الله عزوجل كلّف أهل الصحّة القيام بشأن أهل الزمانة والبلوى كما قال الله تبارك وتعالى لتبلونّ في أموالكم وأنفسكم، في أموالكم إخراج الزكاة، وفي أنفسكم توطين الأنفس على الصبر مع ما في ذلك من أداء شكر نعم الله عزّوجلّ والطمع في الزيادة مع ما فيه من الزيادة والرأفة والرحمة لأهل الضعف والعطف على أهل المسكنة والحثّ لهم على المواساة وتقوية الفقراء والمعونة لهم على أمر الدين، وهو عظة لأهل الغنى وعبرة لهم ليستدلّوا على فقراء الآخرة

---

(٨٩) علل الشرائع: ج٢ ص٤٠٤ ح٥، بحار الأنوار: ج٩٦ ص٣٢ ح٨، عيون أخبار الإمام الرضا عليه السلام: ج٢ ص٩٠.

(٩٠) بحار الأنوار: ج٢٩ ص٢٢٣، الاحتجاج: ج١ ص٩٧.

(٩١) الكافي: ج٣ ص٤٩٨ ح٦، وسائل الشيعة: ج٩ ص٢١١ ح١١٨٦٠.

(٩٢) الكافي: ج٣ ص٥٠٧ ح١، وسائل الشيعة: ج٩ ص١٤٦ ح١١٧١٢.

(٩٣) الكافي: ج٣ ص٥٠٥ ح١٤، بحار الأنوار: ج٩٣ ص٢٠ ح٤٧.

بهم وما لهم من الحثّ في ذلك على الشكر لله تبارك وتعالى لما خوّلهم وأعطاهم والدعاء والتضرّع والخوف من أن يصيروا مثلهم في أُمور كثيرة في أداء الزكاة والصدقات وصلة الأرحام واصطناع المعروف»[٩٤].

الجهاد ورفع الأغلال

وقد جُعل الجهاد دفاعاً عن الحقّ، وردّاً للاعتداء الغاشم، وتحطيماً للقيود والأغلال، وإطاحة بعروش الظالمين والمستبدّين، وتهديماً لأبنية الرذيلة والزيغ، وقد قال تعالى عن حكمة بعث الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[٩٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً﴾[٩٦]. وقال سبحانه: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾[٩٧].

هذا هو الجهاد الدفاعي، وردّ الأعداء المهاجمين، وأمّا الأعظم من هذا الجهاد فهو الجهاد مع النفس، وذلك من خلال تنقيتها من الرذيلة، وتنميتها بالفضيلة، كي تتخلّى عن الكذب، والخيانة والرياء، والاستعلاء، وتتحلّى بالصدق، والأمانة ، والإخلاص، والتواضع، وما أشبه ذلك.

ففي الحديث: أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث بسرية فلمّا رجعوا قال: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر، فقيل: يا رسول الله وما الجهاد الأكبر ؟ قال: جهاد النفس[٩٨].

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: مجاهرة بالحقّ، ومناصرة للمظلوم، وصراحة في المنطق، وتهذيب للمجتمع، وشجاعة ضدّ الباطل. وبعبارة أُخرى: أنّهما أمر بالخير، ونهي عن الشرّ، وكفى! وهما دعامة كلّ اجتماع، وعماد كل فضيلة، وامتداد كل خير. فإنّ مثل المجتمع كالقصر المشيد، فإذا رمم كلّما تفطّر منه جانب، وشيّد فيه كل دعامة لحقها الخراب، بقي أنيقاً قابلا للسكنى، أمّا إذا ترك بحاله ، فلا

---

(٩٤) من لا يحضره الفقيه: ج٢ ص٨ ح١٥٨٠، وسائل الشيعة: ج٩ ص١٢ ح١١٣٩٣، بحار الأنوار: ج٩٣ ص١٨ ح٣٨.

(٩٥) سورة الأعراف: ١٥٧.

(٩٦) سورة النساء: ٧٥.

(٩٧) سورة التوبة: ٢٩.

(٩٨) الكافي: ج٥ ص١٢ ح٣.

يمضي عليه حين من الزمن حتّى يخرب وينهدم، ويفقد جماله ونظارته، ولا يكون صالحاً للتوطّن والبقاء. وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهما يرمّمان المجتمع من الانهيار ، ويحفظانه من الخراب والفناء، فهما فضيلة، وأساس كلّ فضيلة. ولذا فإنّ الإسلام الحنيف أكّد عليها بشدّة، فعن عمر بن عرفة قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: «لتأمرنّ بالمعروف ولتنهنّ عن المنكر أو ليستعملنّ عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم»(٩٩).

وعن الصادقين عليهما السلام: «ويل لقوم لا يدينون الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»(١٠٠).

وقال أبو جعفر عليه السلام: «بئس القوم قوم يعيبون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»(١٠١).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ الله عزّوجلّ ليبغض المؤمن الضعيف الذي لا دين له، فقيل له: وما المؤمن الذي لا دين له؟ قال: الذي لا ينهى عن المنكر»(١٠٢).

التولّي والتبرّي

ومن الأُمور المهمّة التي تساعد الإنسان على تطهير نفسه من الرذائل، وتجميلها بالخصال الحسنة المحمودة هي: ولاية الأخيار ومحبّتهم، والبراءة من الأشرار ومعاداتهم.

وفي الحقيقة: إنّ التولّي لأولياء الله، والتبرّي من أعدائه، وقاية وعلاج: فهما وقاية عن استشراء الرذيلة وتوسّع القذارة، وعلاج لمن ترسّب في نفسه الشرّ، وعشعش الباطل في أعماقه.

ففي الحديث الشريف: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أي عرى الإيمان أوثق»؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم، فقال بعضهم الصلاة، وقال بعضهم الزكاة، وقال بعضهم الصوم، وقال بعضهم الحجّ والعمرة، وقال بعضهم الجهاد، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لكل ما قلتم فضل وليس به ولكن أوثق عرى الإيمان الحبّ في الله والبغض في الله وتولّي أولياء الله والتبرّي من أعداء الله عزّوجلّ»(١٠٣).

وعن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله عزّوجلّ: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾(١٠٤) فقال: «من عبد فيه غير الله عزّوجلّ أو تولّى فيه غير أولياء الله، فهو ملحد بظلم، وعلى الله تبارك وتعالى أن يذيقه من عذاب أليم»(١٠٥).

---

(٩٩) الكافي: ج٥ ص٥٦ ح٣، مستدرك الوسائل: ج١٢ ص١٨١ ح١٣٨٢٧.

(١٠٠) الكافي: ج٥ ص٥٧ ح٤، التهذيب: ج٦ ص١٧٦ ح٢، وسائل الشيعة: ج١٦ ص١١٧ ح٢١١٢٧.

(١٠١) الكافي: ج٥ ص٥٧ ح٥، التهذيب: ج٦ ص١٧٦ ح٣، وسائل الشيعة: ج١٦ ص١١٧ ح٢١١٢٨.

(١٠٢) الكافي: ج٥ ص٥٩ ح١٥، وسائل الشيعة: ج١٦ ص١٢٢ ح٢١١٣٩.

(١٠٣) معاني الأخبار: ص٣٩٨ ح٥٥، الكافي: ج٢ ص١٢٥ ح٦، وسائل الشيعة: ج١٦ ص١٧٧ ح٢١٢٨٤ .

(١٠٤) سورة الحج: ٢٥.

(١٠٥) الكافي: ج٨ ص٣٣٧ ح٥٣٣.

الفصل الثالث

- خُلق الفرد
- الكسل
- الطمع والحرص
- حبّ الظهور
- إكبار النفس
- العلم

خُلُق الفرد

إنّ الفرد هو أوّل لبنة في المجتمع، فبصلاحه يصلح المجتمع، وبفساده يفسد المجتمع.

والأُمّة النشيطة، هي الأُمّة التي نشط أفرادها، وبخلافها الأُمّة الخاملة، فإنّها هي الأُمّة التي خمل أفرادها، فنشاط المجتمع يكون بنشاط الأفراد، وخمول الأُمّة هو من خمول أفرادها.

وعلى أيّة حال: فإنّ لأخلاق الفرد المدخلية التامّة في صنع أخلاق المجتمع ، ولذا فإنّ كلّ مصلح يريد إصلاح المجتمع يشرع بتصقيل نفوس الأفراد، ويبدأ بتهذيب نفوسهم وتشذيبها فرداً فرداً.

وهذا شأن الكون، فبالقطرات تجتمع البحار، وبحبّات الرمال تتكوّن الصحاري، وبأفراد النجوم الزواهر، تتكوّن السماء الوضّاءة. وعلى هذا المبدأ تبتني الأحزاب والعساكر، فإنّها فرد، ثمّ فرد، ثمّ فرد، حتّى يتكوّن حزب قوي، أو جيش عرمرم.

وحيث إنّ للفرد شهوات وميولا، ونزوات ونزعات، فإنّ صلاحه يتوقّف على إصلاحها، ومعالجتها يتم بالسير على الطريقة الوسطى، بلا إفراط ولا تفريط، ولا سرعة ولا بطئ. فكل من الكبت المطلق، والحرّية المطلقة هو خروج عن الاعتدال.

ولذا فإنّ الإسلام في برنامجه التربوي للمجتمع توجّه أولاً وبالذات إلى الفرد: فأراه مواضع الزيغ والانحراف، وأرشده إلى العدل والنصفة، ثمّ دعمهما بترغيب وترهيب، وثواب وعقاب، حفظاً له وللمجتمع عن الانهيار والبوار.

الكسل

من الآفات الخطيرة على الفرد هو الكسل، فهو يهدم الشخصية، ويذوي زهرة العمر النضر، ويؤدّي بصاحبه إلى الهلاك المحتوم، والتأخّر في ميدان الحياة الفسيح.

هذا والكسالة حِلق سلسلة متّصلة ومتعاقبة، يتبع بعضها بعضاً، فمن كسل عن شيء لا ينفكّ حتّى يكسل عن آخر، وهكذا دواليك، حتّى يلتحق بالأموات وهو يمشي على ظهر الأرض، فيصبح في عدادهم وإن كان جسمه في الأحياء.

وعلى خلاف ذلك تماماً هو النشاط، فهو حياة وحياة.. وعمل وعمل.. فالنشيط كالنبت في الأرض الخصبة، فلا يلبث حتّى ينمو ويورق، ويزهر ويثمر، فيغدو متعة للعين، ولذّة في الروح، وفيض للحياة، ودفء وضياء.

وما الآثار التي نراها محيطة بنا، من زرع وعمران، ودور ومدن، ومصانع ومدارس، وآلات وأدوات، إلاّ آثار النشاط.

ففي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إياك وخصلتين: الضجر والكسل، فإنّك إن ضجرت

لم تصبر على حقّ، وإن كسلت لم تؤدّ حقّاً»[١٠٦].

وفي واقع الأمر إنّ الكسلان يعجز عن نفسه، فكيف لا يعجز عن الحقوق؟!

فهو كصاحب العبء الثقيل الذي يمرّ عليه الليل وكأنّه سنة، والنهار وكأنّه عام، بينما يمرّ الليل والنهار على الإنسان النشيط مرور السحاب، فيرى وكأنّ أعوامه ساعات، وأيّامه لحظات، أمّا الكسلان فهو يرى ساعاته أعواماً، ولحظاته شهوراً، فيلبث ويلبث حتّى تمضي الأعوام والشهور عليه دقيقة دقيقة.

وكذا الحال بالنسبة إليه للساعة، ثمّ.. اليوم، ناهيك عن الأسابيع والأشهر والأعوام.

وإنّ أقلّ وصف للعام عند الكسلان هو كما قال الله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[١٠٧].

والملفت للانتباه أنّ الكسلان لا يضيّع نفسه فقط، بل يضيّع حقوق الآخرين، وهذا ما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام في كلامه حيث يقول: «إيّاكم والكسل، فإنّه من كسل لم يؤدّ حقّ الله عزّوجلّ»[١٠٨].

وليس حقّ الله فحسب، بل الحقوق أجمع، فعن أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً: «من أطاع التواني ضيّع الحقوق، ومن أطاع الواشي ضيّع الصديق»[١٠٩].

وبالإضافة إلى ذلك تكون عاقبة الكسالة في العبادات هو الإثم، وذلك لأنّ الكسلان لا يؤدّي الطاعة، لأنّ الطاعة بحاجة إلى النشاط وهو لا نشاط له، ولذلك يتوانى عنها ويدعها حتّى تفوت عن وقتها المفروض، وإلى ذلك يشير أمير المؤمنين عليه السلام قائلا: «للكسلان ثلاث علامات: يتوانى حتّى يُفَرِّط ، ويُفَرِّط حتّى يُضَيِّع ، ويُضَيِّع حتّى يَأثَم»[١١٠].

وعن عمّار السجستاني عن أبي عبد الله عليه السلام عن أبي جعفر عليه السلام: «لا خير في الكسل، إذا كسل الرجل أن يتمّ ركوعه وطهوره، فليس فيه خير لأمر آخرته ، وإذا كسل عمّا يصلحه بمعيشة دنياه فليس فيه خير لأمر دنياه»[١١١].

والكسول . في الحقيقة . عبء ثقيل على كاهل المجتمع، لأنّه يعيش على أكتاف الآخرين، فلا يلبث طويلا حتّى يلفظه المجتمع، فيهون عليهم وإن ضربت عليه سرادقات الأموال والأنساب، ولذلك قال

---

(١٠٦) بحار الأنوار: ج٦٩ ص١٩٢ ح٨، أمالي الصدوق: ص٥٤٣ ح٣، مستدرك الوسائل: ج١٢ ص٦٥ ح١٣٥٢٠.

(١٠٧) سورة المعارج: ٤.

(١٠٨) وسائل الشيعة: ج١ ص٢٤٦ ح٦٣٦، مستدرك الوسائل: ج١٢ ص٦٥ ح١٣٥٢٠، الخصال: ج٢ ص٦٢٠.

(١٠٩) نهج البلاغة: ص٥١٠ ح٢٣٩، بحار الأنوار: ج٧٠ ص١٦٠ ح٧.

(١١٠) مستدرك الوسائل: ج١٢ ص٦٥ ح١٣٥٢١، الجعفريات: ص٢٣٢.

(١١١) مجموعة ورّام: ج١ ص٣٠٣.

الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «العجز مهانة»[١١٢].

وقال عليه السلام في حكمة أُخرى له: «العجز آفة»[١١٣].

وأيّة آفة أعظم من آفة الكسل التي تترك حيوية العين والأُذن واللسان، والقلب والدماغ والفكر شللا، لا تتحرّك بخير، ولا تدفع سوءً، فحقّاً إنّها آفة عجيبة. وقد كان نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم وعترته الأطهار عليهم السلام من أروع الأمثلة في النشاط والحيوية، فهم خير أُسوة حسنة لمن أراد الفوز والنجاح.

الطمع والحرص

ومن الآفات الفردية الخطيرة: (الطمع والحرص) فهما أخوان رضيعا لبان ضعة النفس وانحطاط الباطن. فالنفس إذا خفّت طلبت شيئاً لتثقل معه، حتّى ترجّح الكفّة، فهي كالبضاعة إذا نقصت احتاجت إلى ثقل معها، لتعدل الميزان، أو ترجّح البضاعة.

وكذا هو الحال بالنسبة للطمّاع والحريص، إذ أنّهما يشعران بهذه الخفّة في أنفسهما، فيطلبان ما يقع به التوازن، فالطمّاع فقير مهما كثر ماله، وكما يقولون: (إنّ الفقر فقر النفس، لا فقر الجيب واليد).

وقد أشار الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم إلى ذلك في حديث له فقال: «أفقر الناس الطمِع»[١١٤].

وفي الحقيقة إنّ الفقير مهما جاع أو عرى تجده لا يطلب إلاّ ما يستر عورته ويشبع جوعته، أيّاماً، أو أشهراً، أو سنيناً، وهي غاية طلبه، أمّا ذو الطمع فهو لا يرى أمداً لطلبه، وإنّما يطلب ويطلب، ويحرص ويحرص، حتّى يكون مصداقاً لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب، لطلب وادياً ثالثاً»[١١٥].

ولو سئل الطامع الذي جمع مالا وذهباً يكفيانه طيلة عمره: ما الذي تريد؟ لم يكن له جواب إلاّ الفقر في النفس، والخسّة في الروح، والخبث في القلب.

ولو كشف عن باطن الطمع، لرؤي فيه كلّ ذلّ ومنقصة، فهو يقود المرء إلى كل رذيلة، ولذا فإنّ الإمام الباقر عليه السلام حذّر منه بقوله: «بئس العبد عبد له طمع يقوده، وبئس العبد عبد له رغبة تذلّه»[١١٦].

بل إنّ الطمع عادةً ما يقود صاحبه إلى الذلّة والحقارة والحسد والحقد والعداوة والغيبة والوقيعة

---

(١١٢) بحار الأنوار: ج٦٦ ص٣٧٩ ح٣٥، الخصال: ج٢ ص٥٠٥ ح٣.

(١١٣) نهج البلاغة: خ٤ ص٤٦٩، بحار الأنوار: ج٧٠ ص١٦٠ ح٧، روضة الواعظين: ج٢ ص٤٢٢.

(١١٤) بحار الأنوار: ج٧٠ ص١٦٨ ح١، أعلام الدين: ص٣٢٢، أمالي الصدوق: ص٢٠ ح٤، كنز الفوائد: ج١ ص٢٩٩.

(١١٥) روضة الواعظين: ج٢ ص٤٢٩، مجموعة ورّام: ج١ ص١٦٣.

(١١٦) الكافي: ج٢ ص٣٢٠ ح٢، وسائل الشيعة: ج١٦ ص٢٤ ح٢٠٨٦٥، بحار الأنوار: ج٧٠ ص١٧٠ ح٩.

وظهور الفضائح والظلم والمداهنة والرياء والنفاق وعدم الرضا بالقسمة والاتّكال على الباطل.

وإلى هذا المعنى يشير الإمام علي بن الحسين عليه السلام حيث قال: «رأيت الخير كلّه قد اجتمع في قطع الطمع عمّا في أيدي الناس»(١١٧).

وعادةً ما يكون صاحب الطمع لا إيمان له! وأي إيمان له وهو يرتكب كل محظور لإشباع نهمة طمعه. إنّ الإسلام يريد للفرد أن يكون مثالا في الغنى النفسي، قبل الغنى المالي ، فلا يطمع حتّى يسلك به الطمع مسالك الذلّة والمهانة، ويسأل الآخرين، ففي الحديث الشريف إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من سألنا أعطيناه، ومن استغنى أغناه الله»(١١٨). أجل فإنّ في قطع الطمع خير الدنيا والآخرة، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «إن أردت أن تقرّ عينك، وتنال خير الدنيا والآخرة، فاقطع الطمع ممّا في أيدي الناس»(١١٩).

وعن أبان بن سويد عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قلت: ما الذي يثبت الإيمان في العبد؟ قال: «الذي يثبته فيه: الورع، والذي يخرجه منه: الطمع»(١٢٠).

حبّ الظهور

هنا سؤال في غاية الأهمية وكثيراً ما يردّده الناس إزاء أُولئك الذين يحبّون الظهور، ويبغون العلوّ على الآخرين، يقول: لنفرض أنه اعتلا، وأُشير إليه بالبنان على أنّه أصبح ملكاً أو وزيراً أو عالماً و.. و.. ثمّ ماذا؟ فإنّ كلّ من يعمل ويكدّ، ويجدّ ويجتهد، ويحالفه القضاء والقدر السماوي لامتحان الناس واختبارهم، يأتيه كل شيء قُبلا، أحبّ أم كره.

إنّ حبّ الظهور نبت ينمو ـ غالباً ـ في النفوس المريضة، كما ينمو الزرع الخبيث في الأراضي العفنة، وكل من أحبّ الظهور يجرّه حبّه هذا في الأخير إلى المفاسد والرذائل.

وكم رأينا أُناساً ممّن يحبّون الظهور يدأبون ليلا ونهاراً، وسرّاً وجهاراً، وبكل وسيلة وضيعة، ومكر وخديعة لنيل كرسي الظهور، أو للإبقاء عليه، ولو أدّى ذلك إلى تلف النفوس والأموال، وهتك الحرمات والأعراض ـ والعياذ بالله ـ .

وعلى كل حال: فإنّ الدنيا وإن كانت ـ بذلّة وخسّة، وعار وشنار ـ موزّعة بين هؤلاء وغيرهم، إلاّ

---

(١١٧) الكافي: ج٢ ص٣٢٠ ح٣، وسائل الشيعة: ج١٦ ص٢٤ ح٢٠٨٦٦، بحار الأنوار: ج٧٠ ص١٧١ ح١٠.

(١١٨) الكافي: ج٢ ص١٣٨ ح٢، وسائل الشيعة: ج٩ ص٤٤٣ ح١٢٤٥٣، مستدرك الوسائل: ج٧ ص٢٢٤ ح٨٠٩٤.

(١١٩) مستدرك الوسائل: ج١٢ ص٦٨ ح١٣٥٣٠، بحار الأنوار: ج٦٨ ص٢٧٩ ح٢١، الخصال: ج١ ص١٢٢.

(١٢٠) وسائل الشيعة: ج٢٠ ص٣٥٨ ح٢٥٨٢٤، بحار الأنوار: ج٦٧ ص٣٠٤ ح١٩، الخصال: ج١ ص٩ ح٢٩.

أنّ الآخرة تختصّ بالمتّقين الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، كما قال الله تعالى في القرآن الحكيم: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(١٢١).

وعليه ـ وكما يستفاد من الآية ـ فإنّ كل من أراد علواً في الأرض، أو أراد فساداً فيها، لا نصيب له من الآخرة.

أجل إنّ حبّ الظهور مفتاح كل الرذائل والمظالم، ولو نظر أحدنا إلى الكثير من القادة رؤساء الحكومات الظالمة، لرأى أنّ كلّ فساد يصدر منهم من: قتل الأبرياء، واعتقال الناس بغير حقّ، وخيانة بالشعب، وابتزاز الأموال المحرّمة وغيرها، هي من آثار حبّ الظهور، واشتهاء كرسي الحكم، وركوب منصب القيادة والإمارة.

ولذلك فإنّ الإسلام بالغ في مذمّة طلاّب الرياسة، وذمّ أصحابها، فعن أبي الحسن عليه السلام أنّه ذكر رجلا فقال: إنّه يحبّ الرئاسة، فقال: «ما ذئبان ضاريان في غنم قد تفرّق رعاؤها، بأضرّ في دين المسلم من طلب الرئاسة»(١٢٢)، ولعلّ ذلك لأنّ الذئبين يهلكان أغناماً معدودة ـ على أكثر الفروض ـ وطلاّب الرئاسة يهلكون أُمماً بأكملها، ويفسدون الزرع والضرع.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «ملعون من ترأّس، ملعون من همّ بها، ملعون كل من حدّث بها نفسه»(١٢٣).

ومن المعلوم: إنّه ليس معنى ذلك، أن يجتنب الأكفّاء مقامهم، ويخلوها للمفسدين، فإنّ هكذا فهم يعدّ عند المتشرّعة اعوجاجاً في فقه الدين، وزيغ عن مقصد الأحاديث، وإنّما المراد هو أن لا يطلب الرئاسة من ليس لها بأهل ـ كما هو الحال في الكثرة من القادة والرؤساء ـ أمّا أن يطلبها من يريد الإصلاح والإرشاد، دون رياء أو شهوة وسمعة، فإنه طلب حقّ لإقامة الحقّ .

وإلى هذا المعنى أشار الحديث الشريف: «من طلب الرئاسة لنفسه هلك، فإنّ الرئاسة لا تصلح إلاّ لأهلها»(١٢٤).

وقال سفيان بن خالد: قال أبو عبد الله عليه السلام: «إيّاك والرئاسة، فما طلبها أحد إلاّ هلك، فقلت له: جعلت فداك قد هلكنا إذاً، ليس أحد منّا إلاّ وهو يحبّ أن يُذكر ويُقصد، ويُؤخذ عنه، فقال: ليس حيث تذهب، إنّما ذلك: أن تنصب رجلا دون الحجّة، فتصدّقه في كل ما قال، وتدعو الناس إلى

---

(١٢١) سورة القصص: ٨٣.

(١٢٢) بحار الأنوار: ج٧٠ ص١٤٥ ح١، الكافي: ج٢ ص٢٩٧ ح١، وسائل الشيعة: ج١٥ ص٣٥٠ ح٢٠٧٠٧.

(١٢٣) بحار الأنوار: ج٧٠ ص١٥١ ح٥، الكافي ج٢ ص٢٩٨ ح٤، وسائل الشيعة: ج١٥ ص٣٥١ ح٢٠٧١٢.

(١٢٤) مستدرك الوسائل: ج١١ ص٣٨١ ح١٣٣١١، بحار الأنوار: ج٢ ص٣٠٨ ح٦٤.

قوله»[١٢٥].

وقد وصف الله تعالى خيار عباده الصالحين بأنّهم يقولون: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾[١٢٦].

إكبار النفس

إكبار النفس هو أن يرى الإنسان نفسه كبيراً، وذلك خير دليل على صغر النفس، وضعة الروح.

إنّ النفس يصيبها ما يصيب العين ـ أحياناً ـ من قصر النظر، فترى القريب، وتقصر عن تشخيص البعيد. ولا يخفى أنّ الإنسان مجبول على إكبار نفسه، وتزيين عمله واستكثاره، مهما ضؤل وقبح. وكلّما قويت هذه النزعة في النفس انحطّت، وخفّ وزنها، وضعف عملها. وكلّما انعكس الأمر، فرأى الإنسان نفسه صغيراً، وعمله حقيراً، ثقلت وعظُمت همّتها، وبعُدت رؤيتها، وثقُب نظرها، فهو ينشد الكمال دائماً، ويطلب الرقي أبداً، حتّى يصل إلى مرامه المنشود، وكما يقولون: «إنّ من جدّ على الدرب وصل». وقد حارب الإسلام هذه النزعة أشدّ المحاربة، حرصاً منه على سلامة المجتمع، وتزكية الأفراد، فقال عزّ من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلْ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾[١٢٧]. وقال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُمْ مِنْ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى﴾[١٢٨].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تحقّروا شيئاً من الشرّ وإن صغر في أعينكم، ولا تستكثروا الخير وإن كثر في أعينكم»[١٢٩].

وعن الإمام الصادق عليه السلام إنّه قال: «قال إبليس ـ لعنه الله ـ لجنوده: إذا استمكنت من ابن آدم في ثلاث، لم أُبال ما عمل فإنّه غير مقبول منه: إذا استكثر عمله، ونسى ذنبه، ودخله العُجب»[١٣٠].

وليس إكبار النفس المسمّى بالعُجب مقتصراً على العبادة فحسب ـ كما يرتئيه الكثير ـ بل إنّ العجب مذموم في كل مجال، سواء أكان في العبادة والابتهال، أم في العلم والثقافة، أم في الصنعة والاختراع، أم في غيرها من الأمور. ولذا أطلق أمير المؤمنين عليه السلام كلمته الرائعة فقال: «العُجب هلاك،

---

(١٢٥) وسائل الشيعة: ج٢٧ ص١٢٩ ح٣٣٣٩٦، مستدرك الوسائل: ج١٧ ص٣٠٩ ح٢١٤٣٠، بحار الأنوار: ج٢ ص٨٣ ح٦، معاني الأخبار: ص١٧٩.

(١٢٦) سورة الفرقان: ٧٤.

(١٢٧) سورة النساء: ٤٩.

(١٢٨) سورة النجم: ٣٢.

(١٢٩) وسائل الشيعة: ج١٥ ص٣١٢ ح٢٠٦١٠، بحار الأنوار : ج٦٩ ص٣١٤ ح١١.

(١٣٠) بحار الأنوار: ج٦٩ ص٣١٥ ح١٥، الخصال: ج١ ص١١٢ ح٨٦، روضة الواعظين: ج٢ ص٣٨١.

والصبر ملاك»[١٣١].

هذا ولا يخفى أنّ هناك فرقاً بين إكبار النفس وعلو الهمّة، حيث إنّ الثاني من الفضائل ويصحبه الاعتزاز بالنفس، لا اعتزاز المعجَب الخوّار، بل اعتزاز العامل العملاق، بخلاف الأول فإنه رذيلة مردية، تودي عادّةً بصاحبها، وتسقطه عن الحيوية والنشاط.

ولذا فإنّ الإمام السجّاد عليه السلام قال: في دعائه المسمّى بـ (مكارم الأخلاق): «اللهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد، وحلّني بحلية الصالحين، وألبسني زينة المتّقين، في بسط العدل، وكظم الغيظ، واستقلال الخير وإن كثر، من قولي وفعلي، واستكثار الشرّ وإن قلّ، من قولي وفعلي»[١٣٢]. إنّه طموح وعلو همّة، وتخلية للنفس عن شوائب زائفة، وفرق بينه وبين الإكبار الطائش.

العلم

العلم فضيلة، وإن نشأ الشخص في البيداء إلى حين مماته، والجهل رذيلة، وإن حفّت بالجاهل هالة من شرف الآباء، وكوكبة من حواشي المناصب والكراسي.

إنّ الجاهل خفيف الميزان، ثقيل المجلس، ضعيف المنطق.

والعالم قريب رحيب، وقور صبور رفيع، وإن نزلت به الأنساب، وتفرّقت عنه الأسباب، فهو ذو قيمة وإن لم يعرفه الجهّال، كالعسجد فإنّه ثمين وإن صار لعبة طفل، أو دُربة مجنون.

وما أروع كلمة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وأثمنها ـ في وصف العلم ـ حيث قال: «قيمة كل امرئ ما يحسن»[١٣٣] وأعظم بها من كلمة، لا تقدّر بقدر ولا تثمّن بثمن.

وليس عجباً أن نرى القرآن الكريم لم يعرّف العلم، بل جعله موضع سؤال فقال عزّ من قائل: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[١٣٤].

إنّه سؤال مغزاه أكبر من كل تعريف، ولو وزنت هذه الجملة القصيرة، مع كل ما جاء في العلم من فضل ومنقبة، لوجد أنّها أثقل منه. ومن راجع شرائع السماء، وأنظمة الأرض فإنّه لن يجد عشر معشار ما يجده في الإسلام من الحثّ على العلم، وإيجاب طلبه، وتعداد الثواب العظيم لطالبه.

فعن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: «اطلبوا العلم ولو بالصين»[١٣٥] إذ أنّ الصين آنذاك كانت في أواخر المعمورة، وكان طي المسافة إليها من أصعب الأسفار.

---

(١٣١) بحار الأنوار: ج٦٦ ص٣٧٩ ح٣٥، الخصال: ج٢ ص٥٠٥ ح٣.

(١٣٢) الصحيفة السجّادية: دعاء مكارم الأخلاق ص٩٢.

(١٣٣) نهج البلاغة: ق ح٨١ ص٤٨٢، بحار الأنوار: ج١ ص١٨٢ ح٧٧.

(١٣٤) سورة الزمر: ٩.

(١٣٥) وسائل الشيعة: ج٢٧ ص٢٧ ح٣٣١١٩، بحار الأنوار: ج١ ص١٧٧ ح٥٥، روضة الواعظين: ج١ ص١١.

ولا يخفى أنّ العلم ليس آلة هدم وخراب، وقتل وحرق، كما يستخدمه بعض أفراد البشر في العصر الراهن، وإنّما هو آلة ضياء ونور، وقسط وعدل، وفضيلة وإنسانية، وسراج وهّاج يبدّد به ظلمات الظلم والاستبداد، والجهل والمرض، والفقر والحرمان.

ففي الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «طلب العلم فريضة»(١٣٦).

ونحن نقرأ في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغي﴾(١٣٧).

فالعلم المفروض طلبه ـ في نظر نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم ـ هو الذي يخدم البشر، لا الذي يدمّرهم.

هذا ولا يخفى: أنّ بين العلم والجهل حالة ملاحقة ومطاردة، فكلّما اتّسعت دائرة العلم، تقلّصت آفاق الجهل، كما إنّه كلّما اتّسع الضياء انكمش الظلام.

وإلى هذا المعنى يشير بعض العلماء فيقول: «كلّما ازددت علماً، ازددت جهلا».

---

(١٣٦) الكافي: ج١ ص٣٠ ح٢، وسائل الشيعة: ج٢٧ ص٢٥ ح٣٣١١٤، مستدرك الوسائل: ج١٧ ص٢٤٤ ح٢١٢٣٧.

(١٣٧) سورة النحل: ٩٠.

الفصل الرابع

- أخلاق العائلة
- الوالد والولد
- الزوجان
- مقتطفات عن الحقوق الزوجية
- الأرحام

أخلاق العائلة

وبعد ما يضع الإسلام اللبنة الأُولى في بناء المجتمع وهو الفرد، ويُحكم موقعه، يتوجّه إلى العائلة، فيبيّن لها حدودها، ويرشدها إلى خيرها وشرّها، ورقيّها وانحطاطها، ويهتمّ بها غاية الاهتمام، وذلك لأنّ دور العائلة يأتي في الدرجة الثانية من الأُمّة، فإنّ بصلاح العائلة تصلح الأُمّة وبفسادها تفسد.

فتزكية العائلة، وتوجيهها إلى الرشاد، في غاية من الأهمية، لأنّ صلاح العائلة حلقة وصل بين صلاح الفرد والمجتمع، فأوّلاً: صلاح الفرد، ثمّ العائلة، ثمّ المجتمع. ولما كان للعائلة أدب خاصّ، وميزات مخصوصة، أرصد لها الإسلام شطراً مهمّاً من التخطيط والتحديد، وعيّن لها توجيهات متميّزة، ووظائف خاصّة: من أب يعطف، وأولاد يبرّون، وأُمّ تحن، وأُخوة يتواصلون، وزوج يحسن، وزوجة تطيع... وإلى آخره.

وحيث إنّ العائلة ـ في كثير من الأحيان ـ تكون مهبّ عواصف الشقاق، وموضع نزوات الميول الزائفة، كان تأكيد الإسلام في حقّها أكثر من تأكيده بالنسبة إلى الأُمّة.

والعائلة وإن كانت تتكوّن بادئ ذي بدء من الزوجين والأولاد، إلاّ أنّ الأرحام الذين اجتمعوا في رحم عليا، يكونون أيضاً مورد تحديد الإسلام وتخطيطه، تلك الحدود التي تخصّ العائلة خاصّة دون المجتمع، كالتأكيد على مسألة الصلة فيها، فضلا عن مراعاة الحقوق وغيرها من الأُمور الأُخرى التي أشار الإسلام إليها بالأصابع، وسلّط عليها الأضواء إثر بيانه لحدود العائلة[١٣٨].

الوالد والولد

يحتلّ الوالدان الصف الأول من بين صفوف القرابة والرحم، كما يتحمّلان في الأغلب النصيب الأوفر من التعب والعناء في سبيل حفظ العائلة وصيانتها من المخاطر المحدقة بها، فالأُمّ مثلا لها نصيبها المفروض من الحمل والرضاعة والمشقّة والسهر، كما أنّ للأب حصّته المعيّنة من الكدّ والمكسب، وتحمّل المشاق والمصاعب.

فالولد قد وزّع ثقله وقسّم أعباءه بين أب رحيم، وأُمّ حنونة، وإن أُختصّ كل بشطر يغاير شطر أليفه.

والأبوان هما السبب الأول في وجود الأولاد حسب ما جرت الحكمة العليا في جعل الأشياء تابعة للأسباب.

إذن: فلا غرابة في أن يخصّهما الإسلام بكمّ كبير من آياته ورواياته المنادية إلى العطف عليهما والإطاعة لهما والإحسان إليهما.

---

(١٣٨) راجع كتاب (العائلة) للمؤلّف دام ظله.

إنّ القرآن الكريم جعل نصيب الوالدين من البرّ والإحسان، بعد تعظيم الله وطاعته، فقال عزّ من قائل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾(١٣٩).

وليس هذا الأمر لبني إسرائيل فحسب، بل هو لأُمّة عيسى عليه السلام أيضاً، وقد دلّ عليه صريح القرآن حيث نقل عن لسان نبي الله عيسى عليه السلام فقال: ﴿وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً﴾(١٤٠).

ويمتدّ هذا التأكيد ليشمل أُمّة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾(١٤١).

بل إنّ برّ الوالدين مفروض على الناس كافّة بصريح نصّ القرآن حيث قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً﴾(١٤٢).

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْن وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾(١٤٣).

وقد جمعت هذه الآية بين جانبي الاستعطاف والتهديد، بأبلغ بيان ترقيقاً للمشاعر، وتخويفاً للمتكاسلين.

وعلى الرغم من أنّ الإسلام لا يحترم المشرك، لأنّه أعظم الناس جرماً وظلماً، إلاّ أنّه في مورد الوالدين خصّصت هذه القاعدة حيث أكّد القرآن على احترامهما وإن كانا مشركين، فقال عزّ من قائل: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾(١٤٤).

ومن المعلوم: إنّ الأُمّ أولى بالبرّ والرحمة من الأب، حيث إنّها تحمل وترضع ، وتسهر وتتعب، وإلى ذلك يشير الإمام الصادق عليه السلام في حديث له يقول فيه: «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله من أبرّ؟ قال: أُمّك. قال: ثمّ من؟ قال: أُمّك. قال: ثمّ من؟ قال: أُمّك. قال: ثمّ من؟ قال: أباك»(١٤٥).

وقال عماد بن حيّان: خبّرت أبا عبد الله عليه السلام ببرّ إسماعيل ابني بي فقال: «لقد كنت أُحبّه، وقد ازددت له حبّاً، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتته أُخت له من الرضاعة، فلمّا نظر إليها سرّ بها، وبسط ملحفته

---

(١٣٩) سورة البقرة: ٨٣.

(١٤٠) سورة مريم: ٣٢.

(١٤١) سورة الأنعام: ١٥١.

(١٤٢) سورة العنكبوت: ٨.

(١٤٣) سورة لقمان: ١٤.

(١٤٤) سورة لقمان: ١٥.

(١٤٥) الكافي: ج٢ ص١٥٩ . ١٦٠ ح٩، وسائل الشيعة: ج٢١ ص٤٩١ ح٢٧٦٧٠، بحار الأنوار: ج٧١ ص٤٩ ح٩.

لها، فأجلسها عليها، ثمّ أقبل يحدّثها، ويضحك في وجهها، ثمّ قامت فذهبت، وجاء أخوها، فلم يصنع به ما صنع بها، فقيل له: يا رسول الله صنعت بأُخته ما لم تصنع به . وهو رجل . فقال: لأنّها كانت أبرّ بوالديها منه»(١٤٦).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «أتى رجل رسول الله، فقال: يا رسول الله إنّي راغب في الجهاد نشيط، فقال له النبي صلى الله عليه وآله فجاهد في سبيل الله، فإنّك إن تقتل تكن حيّاً عند الله ترزق، وإن تمت فقد وقع أجرك على الله، وإن رجعت، رجعت من الذنوب كما ولدت، قال: يا رسول الله إنّ لي والدين كبيرين، يزعمان أنّهما يأنسان بي، ويكرهان خروجي، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: فقرّ مع والديك، فو الذي صنعني بيده: لأُنسهما بك يوماً وليلة خير من جهاد سنة»(١٤٧).

ولا يخفى إنّ البرّ غير مقتصر على شيء خاص، بل يشمل حتّى النظر والكلام وما إليهما، بل وأبعد من ذلك ممّا يثير الدهشة، فقد قال الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا﴾(١٤٨): «إن أضجراك فلا تقل لهما أُف، ولا تنهرهما إن ضرباك، قال ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلا كَرِيماً﴾(١٤٩): إن ضرباك، فقل لهما: غفر الله لكما، فذلك منك قول كريم. قال: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ﴾(١٥٠): لا تملأ عينيك من النظر إليهما إلاّ برحمة ورقّة، ولا ترفع صوتك فوق أصواتهما، ولايدك فوق أيديهما، ولا تقدّم قدّامهما»(١٥١).

وقال معمّر بن خلاّد: قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: أدعو لوالدي إذا كانا لا يعرفان الحقّ؟ قال: «أدع لهما وتصدّق عنهما، وإن كانا حيين فدارهما، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إنّ الله بعثني بالرحمة، لا بالعقوق»(١٥٢).

وعن أبي جعفر عليه السلام: «ثلاث لم يجعل الله عزّوجلّ لأحد فيهنّ رخصة: أداء الأمانة إلى البرّ

---

(١٤٦) الكافي: ج٢ ص١٦١ ح١٢، وسائل الشيعة: ج٢١ ص٤٨٨ ح٢٧٦٦٥، بحار الأنوار: ج٧١ ص٥٥ ح١٢.

(١٤٧) الكافي: ج٢ ص١٦٠ ح١٠، وسائل الشيعة: ج١٥ ص٢٠ ح١٩٩٢٩، مستدرك الوسائل: ج١١ ص٢٢ ح١٢٣٢٨.

(١٤٨) سورة الإسراء: ٢٣.

(١٤٩) سورة الإسراء: ٢٣.

(١٥٠) سورة الإسراء: ٢٤.

(١٥١) الكافي: ج٢ ص١٥٧ ح١، من لا يحضره الفقيه: ج٤ ص٤٠٧ ح٥٨٨٣، وسائل الشيعة: ج٢١ ص٤٨٧ ح٢٧٦٦٣.

(١٥٢) الكافي: ج٢ ص١٥٩ ح٨، وسائل الشيعة: ج٢١ ص٤٩٠ ح٢٧٦٦٧، بحار الأنوار: ج٧١ ص٤٧ ح٨.

والفاجر، والوفاء بالعهد للبرّ والفاجر، وبرّ الوالدين برّين كانا أو فاجرين»[١٥٣].

وبعد ذلك كلّه فلا يبعد أن يكون البرّ من الأسباب الظاهرة لدخول الجنّة ، والعقوق من العلل البارزة للاقتحام في النار.

فعن أبي الحسن عليه السلام: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: كن بارّاً واقتصر على الجنّة، وإن كنت عاقّاً فاقتصر على النار»[١٥٤].

وعن يعقوب بن شعيب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا كان يوم القيامة، كشف غطاء من أغطية الجنّة، فوجد ريحها من كانت له روح، من مسيرة خمسمائة عام، إلاّ صنفاً واحداً، قلت: من هم؟ قال: العاقّ لوالديه»[١٥٥].

هذا وللعقوق مراتب أكبرها القتل، وأصغرها نظر المقت وقولة أُف، ولذا فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «فوق كلّ ذي برّ برّ، حتّى يقتل الرجل في سبيل الله، فإذا قتل في سبيل الله فليس فوقه برّ، وإنّ فوق كل عقوق عقوقاً، حتّى يقتل الرجل أحد والديه، فإذا فعل ذلك، فليس فوقه عقوق»[١٥٦].

وقال الإمام الصادق عليه السلام في حديث آخر: «من نظر إلى والديه نظر ماقت وهما ظالمان له لم يقبل الله له صلاة»[١٥٧].

وقال عليه السلام: «لو علم الله شيئاً أهون منه، لنهى عنه»[١٥٨].

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ البرّ غير مختصّ بالحياة وحسب، بل يتعدّاها إلى ما بعد الممات، تحفّظاً على أواصر الصلة حتّى بين الأحياء والأموات، فإنّ الروح باقية، والميّت يتطلّع على أقربائه، وبالأخصّ الأولاد.

وإلى هذا المعنى يشير أبو جعفر عليه السلام قائلا: «إنّ العبد ليكون بارّاً بوالديه في حياتهما، ثمّ يموتان فلا يقضي عنهما دينهما ولا يستغفر لهما، فيكتبه الله عزّوجلّ عاقّاً، وإنّه ليكون عاقّاً لهما في حياتهما غير

---

(١٥٣) الكافي: ج٢ ص١٦٢ ح١٥، وسائل الشيعة: ج٢١ ص٤٩٠ ح٢٧٦٦٩، بحار الأنوار: ج٧١ ص٥٦ ح١٥.

(١٥٤) الكافي: ج٢ ص٣٤٨ ح٢، وسائل الشيعة: ج٢١ ص٥٠٠ ح٢٧٦٩٢، بحار الأنوار: ج٧١ ص٦٠ ح٢٣.

(١٥٥) الكافي: ج٢ ص٣٤٨ ح٣، وسائل الشيعة: ج٢١ ص٥٠١ ح٢٧٦٩٤، مستدرك الوسائل: ج١٥ ص١٩٥ ح١٧٩٩٠.

(١٥٦) الكافي: ج٢ ص٣٤٨ ح٤، تهذيب الأحكام: ج٦ ص١٢٢ ح٤، وسائل الشيعة: ج١٥ ص١٦ ح١٩٩٢١.

(١٥٧) مستدرك الوسائل: ج١٥ ص١٩٥ ح١٧٩٨٩، مشكاة الأنوار: ص١٦٤.

(١٥٨) الكافي: ج٢ ص٣٤٨ ح١، وسائل الشيعة: ج٢١ ص٥٠٠ ح٢٧٦٩٣، مستدرك الوسائل: ج١٥ ص١٩١ ح١٧٩٧١.

بارّ بهما، فإذا ماتا، قضى دينهما واستغفر لهما، فيكتبه الله عزّوجلّ بارّاً»[١٥٩].

الزوجان

تنتظم الأُسرة أوّل انتظامها من زوجة وزوج، وكل واحد منهما يعدّ شقّاً ومصراعاً، فإذا اجتمعا توافق الشقّان، وكمل المصراعان. وبالتفاف أحدهما مع الآخر صد للنوازل، ودفع للحياة السامية.

وعجيب أمر الإسلام . وحقيقة عجيب . حيث إنّه حدّ لهذا الأمر حدوداً ، وخطّ له خطوطاً في غاية الدقّة، من البدو إلى الختم، وفي كل خطوة ، وعلى كل حالة، فلم يغفل عن صغيرة أو كبيرة إلاّ أحصاها، استتباباً لنظام العائلة، وتهذيباً لنفوس الأولاد، وترقية لمستقبل الأجيال.

إنّ الإسلام يريد الهدوء، ودفء الحياة بالنسبة إلى الزوجين، وهو كذلك يريد سلامة الأولاد عن الأمراض والعاهات، وطهارة أنفسهم، ورقّة عواطفهم، وحسن أدبهم، ونشاط روحهم. ويريد رقي المحيط، وسلامة المجتمع عن الفقر والمرض والجهل، وحفظه عن الفساد والالتواء والزيغ.

وكلّ ذلك يتحقّق بالزواج أولاً، وبانتقاء كلّ من الزوجين ثانياً، فعلى سبيل المثال إنّ مرض الزهري، والفساد والالتواء الخُلُقي، تنشأ . غالباً . من العزوبة. والعيش الرغيد والحبّ والدفء، وسلامة الأولاد وطهارتهم، تنشأ . في الحالات الكثيرة . من جرّاء الانتقاء الحسن والكفاءة في الزوجين.

ثمّ إنّ الإنسان كلّما نظر إلى الآثار الواردة في النكاح، وتصفّح أبواب الروايات والأخبار الكثيرة فيه، امتلكته الدهشة: فبالرغم من أنّ الإسلام أرشد إلى جميع ما فيه الصلاح بالنسبة إلى هذه الناحية المهمّة من الحياة، فضلا عن تحذيره عن مواضع العطب والهلاك ، والفساد والخبال، إلاّ أنّك تجد أنّ الإسلام بواد والمسلمون بواد آخر.

ولسنا الآن بصدد هذا البحث، فله موضع خاص، وكتاب منفرد، إنّما المهم بيان نظر الإسلام إلى كيفية التعايش الهنيء بين الزوجين، في جوّ من الأخلاق الفاضلة، والسماح الكريم[١٦٠].

فللمرأة احترامها البالغ، وللرجل احترامه المؤكّد، وكل منهما كما تعبّر الآية الكريمة مرتبط بالآخر ارتباط اللباس بالبدن، فقد قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾[١٦١] أي: أنّ كلا منهما بالنسبة إلى الآخر كاللباس بالنسبة إلى الجسد، فهو يقيه الحرّ والبرد، ويحفظ سوأته، ويتمتّع به، ويلتذّ بملمسه، ويرى من البدن ما لا يراه غيره.

ولذلك أمر الإسلام برعاية الحقوق بين الزوجين، ودعا إلى حفظ حرمة الزوجة بالذات لأنّها عادةً ما

---

(١٥٩) الكافي: ج٢ ص١٦٣ ح٢١، وسائل الشيعة: ج١٨ ص٣٧١ ح٢٣٨٧٤، بحار الأنوار: ج٧١ ص٥٩ ح٢١.

(١٦٠) راجع كتاب (كيف نزوج العازبات) للمؤلّف دام ظله.

(١٦١) سورة البقرة: ١٨٧.

تكون ضعيفة الحال مسلوبة الحقوق في شتّى المجالات. وقد استنكر أهل البيت عليهم السلام قسوة الجاهلية، حيث كانوا يضربون المرأة، في مواقف عديدة، فعن الإمام الباقر عليه السلام قال: «أيضرب أحدكم المرأة، ثمّ يظلّ معانقها»(١٦٢).

والمرأة في نظر أمير المؤمنين عليه السلام: بمثابة الريحانة التي يستنشق منها الرحيق الطيّب، ولذا فإنّه عليه السلام قال لابنه الإمام الحسن عليه السلام . أو محمّد بن الحنفية، على الاختلاف .: «لا تملك المرأة من الأمر ما جاوز نفسها، فإنّ ذلك أنعم لحالها، وأرخى لبالها، وأدوم لجمالها، فإنّ المرأة ريحانة، وليست بقهرمانة.. فدارها على كل حال، وأحسن الصحبة لها ليصفوا عيشك»(١٦٣).

وقد استعطف الإسلام الرجال نحو النساء، في قوالب عاطفية، وعبارات رقيقة استجلاباً للرحمة، واستمطاراً للودّ والألفة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»(١٦٤).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «عيال الرجل أُسراؤه، وأحبّ العباد إلى الله عزّوجلّ أحسنهم صنعاً إلى أُسرائه»(١٦٥).

وقال الصادق عليه السلام: «اتّقوا الله في الضعيفين، يعني بذلك اليتيم والنساء»(١٦٦).

وقال عليه السلام: «أكثر أهل الجنّة من المستضعفين: النساء، علم الله ضعفهنّ فرحمهنّ»(١٦٧).

بل جعل الإسلام حبّ الزوجة من علائم الإيمان وأخلاق الأنبياء عليهم السلام وفي طليعتهم الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال في حديث له: «ما أحبّ من دنياكم إلاّ النساء والطيب»(١٦٨).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «جعل قرّة عيني في الصلاة، ولذّتي في النساء»(١٦٩).

وقال أبو عبد الله عليه السلام: «من أخلاق الأنبياء عليهم السلام حبّ النساء»(١٧٠).

---

(١٦٢) الكافي: ج٥ ص٥٠٩ ح١، وسائل الشيعة: ج٢٠ ص١٦٧ ح٢٥٣٢٣.

(١٦٣) من لا يحضره الفقيه: ج٤ ص٣٩٢ ح٥٨٣٤، مكارم الأخلاق: ص٢١٨.

(١٦٤) من لا يحضره الفقيه: ج٣ ص٥٥٥ ح٤٩٠٨، وسائل الشيعة: ج٢٠ ص١٧١ ح٢٥٣٣٧، مكارم الأخلاق: ص٢١٦.

(١٦٥) من لا يحضره الفقيه: ج٣ ص٥٥٥ ح٤٩٠٩، وسائل الشيعة: ج٢٠ ص١٧١ ح٢٥٣٣٨، مكارم الأخلاق: ص٢١٧.

(١٦٦) الكافي: ج٥ ص٥١١ ح٣، من لا يحضره الفقيه: ج٣ ص٣٩٢ ح٤٣٧٩، وسائل الشيعة: ج٢٠ ص١٦٧ ح٢٥٣٢٥.

(١٦٧) من لا يحضره الفقيه: ج٣ ص٤٦٨ ح٤٦٢٨، وسائل الشيعة: ج٢٠ ص١٦٨ ح٢٥٣٢٦، مكارم الأخلاق: ص٢٣٥.

(١٦٨) الكافي: ج٥ ص٣٢١ ح٦.

(١٦٩) الكافي: ج٥ ص٣٢١ ح٧، وسائل الشيعة: ج٢٠ ص٢٢ ح٢٤٩٢٦.

(١٧٠) تهذيب الأحكام: ج٧ ص٤٠٣ ح١٩، وسائل الشيعة: ج٢٠ ص٢٢ ح٢٤٩٢٣، بحار الأنوار: ج١٠٠ ص٢٣٦ ح٢٤.

وقال أبو عبد الله عليه السلام: «كل من اشتدّ لنا حبّاً اشتدّ للنساء حبّاً»[١٧١].

وقال أبو عبد الله عليه السلام: «ما أظنّ رجلا يزداد في هذا الأمر خيراً، إلاّ ازداد حبّاً للنساء»[١٧٢].

وقال أبو عبد الله عليه السلام: «كلّما ازداد العبد للنساء حبّاً، ازداد في الإيمان فضلا»[١٧٣].

نعم هذه وصايا الإسلام الذي يريد خير البشرية ديناً ودنياً، وروحاً وبدناً، وعلماً وعملا، وآخرة وأُولى، إنّه الإسلام الذي لايغفل عن جانب ولا يترك أمراً إلاّ وأبدى فيه رأيه وأرشد الإنسان إلى خيره وحذّره من شرّه . إنّه الإسلام الذي يؤكّد على حبّ النساء، كي لا تفتح المواخير، وتذهب الأعراض، وتسري الأمراض، وتذبل زهرة الفتيان والفتيات بالطرق الملتوية، ويسوء عيش العائلة، ويكدّر صفاءها الشقاق والفراق.

فلا غرابة إذاً من هذا التأكيد العجيب والتوصيات الملحّة والأكيدة، بل إنّ غير هذا عجيب.

وكما دعا الإسلام إلى المحبّة وأكّد عليها في مآثره، فكذلك بالغ في التأكيد على إظهارها بشتّى الأساليب، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «قول الرجل للمرأة: إنّي أُحبّك، لا يذهب من قلبها أبداً»[١٧٤].

مقتطفات عن الحقوق الزوجية

ومن الأُمور المهمّة التي دعا إليها الإسلام إثر تعرّضه لذكر مقوّمات بناء الأُسرة الفاضلة هو: أنّ تتكافأ الحقوق، وتقسّم الواجبات في الأُسرة، فللرجل على المرأة ما للمرأة على الرجل، يقول الله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾[١٧٥].

وعن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «جهاد المرأة حسن التبعّل»[١٧٦]. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للنساء: «لا تطولنّ صلاتكنّ لتمنعنّ أزواجكنّ»[١٧٧].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم النساء أن يتبتلن ويعطلن أنفسهنّ من الأزواج»[١٧٨].

---

(١٧١) وسائل الشيعة: ج٢٠ ص٢٤ ح٢٤٩٣٣، بحار الأنوار: ج٦٣ ص٢٨٧ ح١١، المستطرفات: ص٦٣٦.

(١٧٢) الكافي: ج٥ ص٣٢١ ح٥، من لا يحضره الفقيه: ج٣ ص٣٨٤ ح٤٣٥١، وسائل الشيعة: ج٢٠ ص٢٢ ح٢٤٩٢٤.

(١٧٣) من لا يحضره الفقيه: ج٣ ص٣٨٤ ح٤٣٥٠، وسائل الشيعة: ج٢٠ ص٢٣ ح٢٤٩٣١.

(١٧٤) الكافي: ج٥ ص٥٦٩ ح٥٩، وسائل الشيعة: ج٢٠ ص٢٣ ح٢٤٩٣٠.

(١٧٥) سورة البقرة: ٢٢٨.

(١٧٦) الكافي: ج٥ ص٩ ح١، من لا يحضره الفقيه: ج٣ ص٤٣٩ ح٤٥١٨.

(١٧٧) وسائل الشيعة: ج٢٠ ص١٦٤ ح٢٥٣١٦، غوالي اللآلي: ج٣ ص٣١٠ ح١٣٨.

(١٧٨) الكافي: ج٥ ص٥٠٩ ح١، مستدرك الوسائل: ج١٤ ص٢٤٨ ح١٦٦١٤.

وقال عليه السلام: «أيّما امرأة باتت وزوجها عليها ساخط في حقّ لم تقبل منها صلاة، حتّى يرضى عنها»[١٧٩].

وقد حدّد الإسلام موقف كل من الزوجين تجاه الآخر، موضّحاً أنّ الأذية سواء صدرت عن الزوج أم الزوجة فإنّ لها من العقاب شدّة وقسوة ، تصفية للجو، وإخلاءً للبيت عن الأذى، وتبعيداً للعائلة عن الانفصال والافتراق. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من كان له امرأة تؤذيه، لم يقبل الله صلاتها، ولا حسنة من عملها، حتّى تعينه وترضيه، وإن صامت الدهر وقامت، وأعتقت الرقاب، وأنفقت الأموال في سبيل الله، وكانت أوّل من ترد النار. ثمّ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: وعلى الرجل مثل ذلك الوزر والعذاب إذا كان لها مؤذياً»[١٨٠].

الأرحام

قال الله تعالى: ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْض فِي كِتَابِ اللهِ﴾[١٨١]. نعم.. إنّ الأرحام أولى بالإحسان، والمغفرة والصلة والإرث، بل إنّهم أولى بكل شيء. وهذه الأولوية منشؤها الرحم الواحدة التي جمعتهم، والحنين الخاص الذي يجذبهم إلى البعض وإن قامت العداوات، ونشبت المخاصمات بينهم، فمن أقرب من الأرحام، حتّى يخصّ بالرحمة دونهم؟ ولذا فإنّ القرآن الكريم أكّد على الإحسان إليهم فقال عزّ من قائل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى﴾[١٨٢].

وحيث إنّ الأرحام إذا صلحت استقام أمر الأُمّة، وأورقت أغصانها، وآتت ثمارها، فقد أكّد الإسلام ـ كما هو شأنه في كلّ شيء ـ على شأنها، فجعل الثواب العظيم لصلة الرحم، حتّى ظنّ البعض إنّ هذا التأكيد يشوبه شيء من المحاباة. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من رعى حقّ قرابات أبويه أُعطي في الجنّة ألف ألف درجة، بعد ما بين كل درجتين حضر الفرس الجواد المضمر، مائة سنة»[١٨٣].

وصلة الرحم لا يثاب عليها في الدار الآخرة فقط، بل في الدنيا أيضاً، وهذا ما أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال: «إنّ المعروف يمنع مصارع السوء، وإنّ الصدقة تطفئ غضب الربّ، وصلة الرحم تزيد في العمر، وتنفي الفقر»[١٨٤].

---

(١٧٩) الكافي: ج٥ ص٥٠٧ ح٢، من لا يحضره الفقيه: ج٣ ص٤٣٩ ح٤٥١٩.

(١٨٠) وسائل الشيعة: ج٢٠ ص١٦٣ ح٢٥٣١٥.

(١٨١) سورة الأنفال: ٧٥.

(١٨٢) سورة البقرة: ٨٣.

(١٨٣) بحار الأنوار: ج٧١ ص٩٠ ح٨، مستدرك الوسائل: ج١٢ ص٣٧٨ ح١٤٣٤١.

(١٨٤) مستدرك الوسائل: ج٧ ص١٥٨ ح٧٩٠٨، بحار الأنوار: ج٧١ ص٨٨ ح٢، قرب الإسناد: ص٣٧.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام لنوف البكالي: «يا نوف، صل رحمك، يزيد الله في عمرك»[١٨٥].

وقد ضرب النبي صلى الله عليه وآله وسلم لنقص العمر وزيادته مثالا جليّاً، بحيث إنّه لا يحتمل المجاز والتأويل. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ المرء ليصل رحمه، وما بقى من عمره إلاّ ثلاث سنين، فيمدّها الله إلى ثلاث وثلاثين سنة، وإنّ المرء ليقطع رحمه وقد بقى من عمره ثلاث وثلاثون سنة، فيقصرها الله إلى ثلاث سنين»[١٨٦].

ولا يخفى أنّ صلة الرحم هو عطف من ناحيتين: إنسانية، ورحمية، ففيها ملاك أجرين، ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الصدقة بعشرة، والقرض بثمانية عشرة، وصلة الإخوان بعشرين، وصلة الرحم بأربعة وعشرين»[١٨٧].

وحقّاً أنّ هذا التدرّج الموجود في الرواية لهو جدير بالتأمّل، فالصدقة مثلا ترفع مستوى الفقير، لكن عدمها لا يورث ضغناً ولا إحناً، فلها ثوابها المعتاد الذي أشار إليه القرآن الكريم حيث قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[١٨٨].

والقرض لما كان عن احتياج مقترن بماء وجه المقترض يكون فيه ثواب قضاء الحاجة، وثواب حفظ نضارة وجه المحتاج، فهو إذن: أعظم من الصدقة أجراً. وكذا الحال بالنسبة للإخوة المتحابّين، فإنّه قلّما لا يقع بينهم هنات، ولذا كانت الصلة هي أفضل رافع لها، إذ أنّ فيها قطع لجذور الضغائن، وغسل للكدورات التي لو بقيت كبرت، وسبّبت الهجران.

ومن هنا دعا الإسلام إلى الصلة التي تبقي الودّ، وتحصد الشرّ، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «صلوا أرحامكم في الدنيا ولو بسلام»[١٨٩]. وقال أبو عبد الله عليه السلام: «صل رحمك ولو بشربة من ماء، وأفضل ما يوصل به الرحم: كفّ الأذى عنها، وصلة الرحم منسأة في الأجل، محبّبة في الأهل»[١٩٠].

ثمّ لا يخفى: أنّ الإسلام لا يخصّ بالعطف والصلة الرحم الشفيق فحسب، بل يأمر بذلك حتّى للجافي منهم، بل حتّى للعدو اللدود، فعن سالمة مولاة أبي عبد الله عليه السلام قالت: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام حين حضرته الوفاة، وأُغمي عليه، فلمّا أفاق قال: أُعطوا الحسن بن علي بن علي بن الحسين. وهو الأفطس. سبعين ديناراً، وأعط فلاناً كذا، وفلاناً كذا، فقلت: أتعطي رجلا حمل عليك بالشفرة يريد أن يقتلك؟ قال عليه السلام: تريدين أن لا أكون من الذين قال الله عزّوجلّ: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ

---

(١٨٥) بحار الأنوار: ج٧١ ص٨٩ ح٤، أعلام الدين: ص١٨٧.

(١٨٦) بحار الأنوار: ج٤ ص١٢١ ح٦٦، تفسير العياشي: ج٢ ص٢٢٠ ح٧٥.

(١٨٧) الكافي: ج٤ ص١٠ ح٣، تهذيب الأحكام: ج٤ ص١٠٦ ح٣٦.

(١٨٨) سورة الأنعام: ١٦٠.

(١٨٩) بحار الأنوار: ج٧١ ص١٠٤ ح٦٢، نوادر الراوندي: ص٦.

(١٩٠) الكافي: ج٢ ص١٥١ ح٩، بحار الأنوار: ج٧١ ص١١٧ ح٧٨.

أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾[١٩١] نعم: يا سالمة، إنّ الله خلق الجنّة فطيّبها، وطيّب ريحها، وإنّ ريحها ليوجد من مسيرة ألفي عام، فلا يجد ريحها عاقّ، ولا قاطع رحم»[١٩٢].

ولا عجب في ذلك، فإنّ الإسلام يأمر بالعفو عن غير ذي الرحم، حيث قال تعالى: ﴿خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ﴾[١٩٣] وقال تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[١٩٤] فكيف بذي الرحم؟

إنّها تعاليم الإسلام الحكيمة، وقوانينه السمحة التي لا تريد إلاّ السلام والوئام، والحبّ والوداد بين الناس.

وقد بيّن رسول الإنسانية صلى الله عليه وآله وسلم حدود الرحم التي يجب صلتها فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لما أُسري بي إلى السماء، رأيت رحماً متعلّقة بالعرش تشكو رحماً إلى ربّها، فقلت لها: كم بينك وبينها من أب؟ فقالت: نلتقي في أربعين أباً»[١٩٥].

يبقى القول بأنّ قطع الرحم، من الأعمال التي يعجّل وبالها في الدنيا قبل الآخرة، فعن أمير المؤمنين عليه السلام:

«ثلاث خصال لا يموت صاحبهنّ أبداً حتّى يرى وبالهن: البغي، وقطيعة الرحم، واليمين الكاذبة يبارز الله بها، وإن أعجل الطاعة ثواباً لصلة الرحم»[١٩٦].

---

(١٩١) سورة الرعد: ٢١.

(١٩٢) مستدرك الوسائل: ج١٤ ص١٣٨ ح١٦٣١٣، غيبة الطوسي: ص١٩٦.

(١٩٣) سورة الأعراف: ١٩٩.

(١٩٤) سورة البقرة: ٢٣٧.

(١٩٥) عيون أخبار الإمام الرضا عليه السلام: ج١ ص٢٥٤ ح٥.

(١٩٦) الكافي: ج٢ ص٣٤٧ ح٤، الخصال: ج١ ص١٢٤ ح١١٩.

الفصل الخامس

- الأُلفة والوحدة
- السبيل إلى الأُلفة
- الإسلام والإنسانية العامّة
- حسن الخلق
- الجود والبخل
- الجار والصديق
- السعي في الحوائج
- الصدق
- الكذب مفتاح الرياء
- شهادة الزور
- خلف الوعد
- النفاق
- العدل والنصفة
- لسان السوء
- الأمانة
- المشورة
- التواضع

الألفة والوحدة

إنّ بني الإنسان رجالا ونساءً أُسرة واحدة، إذ هم يرجعون إلى أب واحد وأُمّ واحدة: آدم وحواء عليهما السلام وإنّ مثلهم فيما بينهم كمثل الأعضاء في الشخص الواحد ، لا يستغني عضو منها عن العضو الآخر، كما لا غنى للإنسان إلاّ بها أجمع.

فالأُذن مثلا لا تقوم مقام العين، والرجل لا تفعل ما تفعله اليد، والشخص بغير لسان يعدّ ناقصاً وإن اكتمل من سائر النواحي وهكذا. وكذا الحال بالنسبة إلى هذا الكون الفسيح حيث خلقه الباري تعالى وحدة متكاملة يرتبط بعض أجزائه ببعض، وإن ابتعدت المسافة بينها، فالشمس مثلا وإن ابتعدت عن الأرض ملايين الكيلومترات إلاّ أنّها تغمرها بنورها الوضّاء وتبعث الدفء والحياة إليها، ناهيك عن الماء وعلاقته بالهواء، والحرارة وارتباطها بالأحياء.

وليس الإنسان إلاّ أحد أجزاء هذا الكون الموحّد، فليكن بعضهم دعامة بعض، وأحدهم معيناً للآخر...

وبالفعل لا غنى لأي فرد عن المشاركة مع بني نوعه، فهذا يزرع، وذاك يحصد، والآخر يعجن ويخبز.. وذاك يندف، وغيره ينسج، وآخر يخيط، وواحد يبني، وآخر يسكن... وهكذا.

نعم إنّ الإنسان محتاج إلى أبناء جلدته، في المشاعر والعواطف والحبّ والبغض، والفرح والغضب، والتعليم والتعلّم، والأُنس والتواصل، وكلّ هذه الأُمور تحتاج إلى أطراف يتجاذبونها، ويتبادلون أخذها وعطاءها، فهذا يحبّ ذاك ، وذاك يعطف على الآخر، وهكذا.

إذن: فلا مفرّ للإنسان عن التعاون والتشارك، حتى يتم النظام، وتسير الأُمور بيسر وسهولة. وببركة هذه الغرائز التي أودعها الله تعالى في البشر، شيّدت المدن، وازدهرت الحضارات، وبلغ الإنسان أرقى مراتب الكمال.

هذا من جانب، ومن جانب آخر إنّ التماسك بين أبناء المجتمع، يعطي قوّة في النفس، وقوّة في العمل، فإنّ الذي يعرف أنّ له معاوناً، تتقوّى نفسه، وتشتدّ عزيمته، وتنفذ إرادته، ثمّ تقوى عضلاته، ويفور دمه وبذلك يكون أقرب إلى النصر ونجاح الأمر.

ففي القرآن الحكيم أنّ نبي الله موسى عليه السلام طلب من الله تعالى مشاركة أخيه: هارون عليه السلام في الرسالة معه بقوله: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾(١٩٧).

وهذا الأمر غير مقتصر على الإنسان وحده، بل يشمل غير الإنسان من المخلوقات الأُخرى أيضاً، فالظباء مثلا تدرك هذه الحقيقة، فتجتمع وتصير قطعاناً أثر بحثها عن الغذاء، والطيور التي نراها تحلّق في

---

(١٩٧) سورة طه: ٢٩ ـ ٣٢.

السماء، فهي لا تطير إلاّ أسراباً، ولا تعيش إلاّ مجتمعة، وكذا الحال بالنسبة للنحل والنمل، فهي تهيئ شؤونها، وتدير أُمورها بالاجتماع.

وينقل إنّ أحد الملوك ضرب لأولاده . وكانوا عشرة وهو يحثّهم على الاتّحاد والتماسك بينهم . أروع الأمثلة، حيث طلب منهم أن يأتي كل واحد منهم بعود من قصب، فلما أتوه بذلك جمعها الملك في مكان واحد، وشدّ بعضها إلى بعض، ثمّ ناولها كلّ واحد منهم، وطلب منهم كسرها! فلم يتمكّن أحدهم من ذلك، ثمّ نثرها وأعطى كلّ واحد منهم قصبته، فكسرها بكل سهولة، آنذاك التفت الملك إليهم وقال: إنّكم إن اجتمعتم كان أمركم رشداً، ولم يقدر عليكم أحد، وإن تفرّقتم أبادكم العدو واحداً بعد واحد.

وقد اهتمّ الإسلام الحنيف بالأُلفة والوحدة أكبر اهتمام، فلمّا قدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة المنوّرة آخى بين أصحابه، وكانت هذه أوّل طلائع النصر والقوّة. وقد أمر القرآن المسلمين بالوحدة فقال عزّ من قائل: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾[١٩٨]. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١٩٩].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «لا يرجع صاحب المسجد بأقل من إحدى ثلاث خصال: إمّا دعاء يدعو به يدخله الله به الجنّة، وإمّا دعاء يدعو به فيصرف الله عنه بلاء الدنيا، وأمّا أخ يستفيده في الله عزّوجلّ»[٢٠٠].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما استفاد امرئ مسلم فائدة بعد فائدة الإسلام مثل أخ يستفيده في الله»[٢٠١].

فانضمام الرجل إلى الآخر . في نظر نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم . يتلو الإسلام في الأهمية، فكما أنّ الإسلام صلاح للدين والدنيا كذلك الأخ، فهو صلاح للدين والدنيا، لكن بشرط أن يكون: «في الله» لا في الشيطان. فعن الإمام الرضا عليه السلام: «من استفاد أخاً في الله، فقد استفاد بيتاً في الجنّة»[٢٠٢].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «المؤمنون في تبارهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى

---

(١٩٨) سورة آل عمران: ١٠٣.

(١٩٩) سورة الأنفال: ٦٢ . ٦٣.

(٢٠٠) وسائل الشيعة: ج٥ ص١٩٣ ح٦٣٠٩، بحار الأنوار: ج٧١ ص٢٧٥ ح٣.

(٢٠١) راجع وسائل الشيعة: ج١٢ ص٢٣٣ ح١٦١٧٠،مجموعة ورّام: ج٢ ص١٧٩.

(٢٠٢) وسائل الشيعة: ج١٢ ص١٦ ح١٥٥٢١، مستدرك الوسائل: ج٨ ص٣٢٣ ح٩٥٥٥، بحار الأنوار: ج٧١ ص٢٧٦ ح٤.

تداعى له سائره بالسهر والحمّى»[٢٠٣].

بل وأبعد من ذلك، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «لا والله لايكون المؤمن مؤمناً أبداً حتّى يكون لأخيه المؤمن مثل الجسد، إذا ضرب عليه عرق واحد، تداعت له سائر عروقه»[٢٠٤].

وما أجمل هذا المثال، وأغور عمقه حيث يقول عليه السلام: «إذا اشتكى تداعى له سائره بالسهر والحمّى» أي: أنّه ليس يسوؤه فحسب، بل يتداعى له بالسهر والحمّى، وكما يقول الإمام الصادق عليه السلام: «من حبّ الرجل دينه، حبّه أخاه»[٢٠٥].

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «قال جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله: أيّها الناس، حلالي حلال إلى يوم القيامة، وحرامي حرام إلى يوم القيامة، ألا وقد بيّنهما الله عزّوجلّ في الكتاب، وبيّنتهما لكم في سيرتي وسنّتي، وبينهما شبهات من الشيطان وبدع بعدي، من تركها صلح له أمر دينه، وصلحت له مروّته وعرضه، ومن تلبّس بها ووقع فيها، واتّبعها كان كمن رعى غنمه قرب الحمى، ومن رعى ماشيته قرب الحمى، نازعته نفسه إلى أن يرعاها في الحمى، ألا وإنّ لكلّ ملك حمى، وإنّ حمى الله عزّوجلّ محارمه، فتوقّوا حمى الله ومحارمه، ألا وإنّ ودّ المؤمن من أعظم سبب الإيمان، ألا ومن أحبّ في الله جلّ وعزّ، وأبغض في الله، وأعطى في الله، ومنع في الله عزّوجلّ، فهو من أصفياء المؤمنين عند الله تبارك وتعالى، ألا وإنّ المؤمنين إذا تحابا في الله عزّوجلّ، وتصافيا في الله، كانا كالجسد الواحد إذا اشتكى أحدهما من جسده موضعاً، وجد الآخر ألم ذلك الموضع»[٢٠٦].

السبيل إلى الألفة

يبقى القول في إنّ الإسلام يضع من أجل التحفّظ على هذا المعنى النبيل: (الألفة والوحدة) نقاطاً ثلاثاً ألا وهي:

١ . الحثّ البالغ على الألفة والوحدة، والمحبّة والأخوّة، وعلى الاعتصام بحبل الله جميعاً، وعدم التفرّق.

٢ . الإرشاد إلى منابع الألفة، وما يسبّبها: من برّ، وصلة، وهدية، وزيارة ، وتحية، وما أشبه ذلك.

٣ . توجيه الإنسان إلى ما يبتر النظم، ويفسد الألفة كالغيبة، والنميمة، والحسد، والسباب، والعقوق، ثمّ ينهى عن ذلك نهياً صارماً لا هوادة فيه.

---

(٢٠٣) مستدرك الوسائل: ج١٢ ص٤٢٤ ح١٤٥٠٦، بحار الأنوار: ج٧١ ص٢٣٤ ح٣٠، المؤمن: ص٣٩ ح٩٢.

(٢٠٤) مستدرك الوسائل: ج٩ ص٤٢ ح١٠١٥٤، بحار الأنوار: ج٧١ ص٢٣٣ ح٣٠.

(٢٠٥) مستدرك الوسائل: ج١٢ ص٢٣٥ ح١٣٩٧٩، بحار الأنوار: ج٧١ ص٢٧٩ ح٣، الاختصاص: ص٣١.

(٢٠٦) بحار الأنوار: ج٧١ ص٢٨٠ ح٧، كنز الفوائد: ج١ ص٣٥٢.

الإسلام والإنسانية العامّة

اشتقّ الإنسان ـ كما قيل ـ من الأُنس، فكلّ فرد منه يأنس بالآخرين، وإن اختلفوا في النوازع، وتباينوا في الأفكار، وتشاحّوا في العقائد.

ولذا لم يسمح الإسلام لأحد في قطر أن يسخر من قطر، أو يهمزه ويلمزه، وإلاّ لسخر بلد من بلد، وحي من حي، ودار من دار، وبالآخرة فرد من فرد. وبذلك ينفصم الاجتماع، ويسود الشقاق والنفاق، ويكثر ضياع الدم والمال، العلاج الناجع والوحيد هو: أن يترك الإنسان دواعي الخلاف والنزاع ، ويأخذ بما يدعو للوفاق والوئام.

وهنا يبدو جليّاً حكمة الإسلام العظيم حيث إنّه سوّر المجتمع وحصّن الأُمّة بسياج من الأخلاق الرفيعة ، حفظاً له عن عبث العابثين، وإفساد المفسدين، ولتبقى للأُمّة وحدتها ، وودّها، وألفتها فيتاح للإنسان اجتياز العقبات الكأداء، ويوفّق إلى بناء صرح مجيد، وحضارة إنسانية شاملة، يعيش في ظلّها هانئاً كريماً.

ومعه فلماذا يركن البعض إلى التفرقة؟ ولأي علّة يسود التباغض والتشاحن أجواءنا؟ أليس الجميع من أب واحد، وأُمّ واحدة؟ ألم يقل الباري تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾(٢٠٧).

علماً بأنّ هذه الآية الكريمة تفيد: بأنّ الإسلام حيث جعل ملاك التفاضل بين الناس: التقوى، جعل أيضاً ما يفتح على الناس باب التقوى، وما يسهّل عليهم سلوك طريقه، والوصول إليه ، والحصول عليه: من مناهج وبرامج تهدي إليه، إن هم أخذوا بها فازوا وسعدوا، وأفلحوا ونجحوا، ونحن نستعرض بحسب وسعنا بعضاً من تلك المناهج والبرامج إن شاء الله تعالى(٢٠٨).

حُسن الخُلْق

إنّ من الأُمور التي تهدي إلى التقوى، وتساعد على ائتلاف القلوب: حسن الخلق، وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام المثل الكامل فيه، ولذلك عندما يتأمّل الإنسان في سيرة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الأطهار عليهم السلام يجد أنّهم جميعاً كانوا يبلّغون بأعمالهم وأقوالهم للفضائل، ويدلّون الناس على الأخلاق الحسنة، وآداب الإسلام الحميدة التي ندب إليها القرآن الكريم.

وحيث إنّ حسن الخلق له تأثير خاصّ في تأليف النفوس، أكّدت عليه كثير من الآيات والروايات، حتّى أنّ الله تعالى امتنّ على نبيه الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بأن جعله حسن الخُلق، فقال عزّوجلّ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾(٢٠٩).

---

(٢٠٧) سورة الحجرات: ١٣.

(٢٠٨) راجع كتاب (الفضيلة الإسلامية) للمؤلّف قدس سره.

(٢٠٩) سورة آل عمران: ١٥٩.

فكأنّه تعالى يخاطب النبي ﷺ ويخبره: بأنّه هو الذي وهبه حسن الخلق ومنحه الرفق واللين، وجعل ذلك سبباً لالتفاف الناس حوله وألفتهم به، ولولا هذه المنحة وتلك الموهبة، لأنفضّ الناس من حول النبي ﷺ ولم يستجب له أحد، ولم يؤمن به شخص، ولبقي وحيداً فريداً.

وعلى كل حال: فإنّ الأخلاق الحسنة ترفع من شأن الإنسان وتجعله ينال من التقوى ما يتألّق به في قمم العلى، فيصبح مقبولاً بين أوساط الآخرين فلا يطرأ ذكره في محفل إلاّ وأثنى الجميع عليه، ولا يقدم على عمل إلاّ وتكون نتيجته الموفّقية والسداد. وعلى العكس تماماً صاحب الأخلاق الذميمة، فإنّه عادةً ما ينال سخط الناس وغضبهم جرّاء سوء أخلاقه وفظاظة تعامله السيّئ مع الناس ممّا يجعلهم ينفضّون من حوله ويفرّون من عنده.

ومن هنا فإنّ الرسول الأكرم ﷺ والأئمّة الأطهار عليهم السلام كانوا يؤكّدون على حسن الأخلاق ويدعون الناس إلى الالتزام بها موضّحين مدى تأثيرها على موفّقية المرء في الدنيا والآخرة.

فعن رسول الله ﷺ: «إنّ جبرئيل الروح الأمين، نزل عليّ من عند ربّ العالمين فقال: يا محمّد عليك بحسن الخُلق، فإنّه ذهب بخير الدنيا والآخرة، ألا وإنّ أشبهكم بي أحسنكم خُلقاً»(٢١٠).

وقال رسول الله ﷺ: «خصلتان لا تجتمعان في مسلم: البخل، وسوء الخُلق»(٢١١).

ثمّ إنّه ما فائدة سوء الخُلق؟ فهل إنّه يرفع مشكلة، أو يجلب منفعة، أو يدفع مضرّة؟ كلاّ، فلا هذا ولا ذاك، بل بالعكس فهو يجلب كل الويل على الشخص نفسه قبل غيره.

فعن رسول الله ﷺ: «من ساء خُلقه عذّب نفسه»(٢١٢).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في وصيّته لابنه محمّد بن الحنفية: «إيّاك والعجب، وسوء الخُلق، وقلّة الصبر، فإنّه لا يستقيم لك على هذه الخصال الثلاث صاحب، ولا يزال لك عليها من الناس مجانب، وألزم نفسك التودّد»(٢١٣).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «لا مروّة لكذوب، ولا أخ لملوك، ولا راحة لحسود، ولا سؤدد لسيئ الخُلق»(٢١٤).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام لأبي أيّوب الأنصاري: «يا أبا أيّوب ما بلغ من كرم أخلاقك؟ قال: لا أُوذي جاراً فمن دونه، ولا أمنعه معروفاً أقدر عليه، ثمّ قال: ما من ذنب إلاّ وله توبة، وما من تائب إلاّ

---

(٢١٠) وسائل الشيعة: ج١٢ ص١٥١ ح١٥٩١٩، بحار الأنوار: ج٦٨ ص٣٨٧ ح٣٥، روضة الواعظين: ج٢ ص٣٧٧.

(٢١١) وسائل الشيعة: ج٩ ص٣٩ ح١١٤٧١، بحار الأنوار: ج٧٠ ص٣٠١ ح٩، الخصال: ج١ ص٧٥ ح١١٧.

(٢١٢) مستدرك الوسائل: ج١٢ ص٧٤ ح١٣٥٤٦، تحف العقول: ص٣٦٣.

(٢١٣) بحار الأنوار: ج٧٤ ص٣٩٨ ح١٦، الخصال: ج١ ص١٤٧ ح١٧٨.

(٢١٤) بحار الأنوار: ج٦٩ ص٢٦١ ح٣٣.

وقد تسلّم له توبته، ما خلا سيئ الخُلق، لا يكاد يتوب من ذنب، إلاّ وقع في غيره أشر منه»[٢١٥].

نعم، فمن ساء خُلقه تكدّرت أجواؤه، فيمكث يبثّ الشرّ، حتّى تحيط به هالة من الكلوح، فيمجّه كل من ينظر إليه، ويجانبه كل صديق، ناهيك عن الحساب العسير الذي ينتظره يوم القيامة.

فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «أُتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقيل له: إنّ سعد ابن معاذ قد مات، فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقام أصحابه فحمل، فأمر بغسل سعد، وهو قائم على عضادة الباب، فلمّا أن حنّط وكفّن وحمل على سريره، تبعه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بلا حذاء ولا رداء. ثم كان يأخذ يمنة السرير مرّة، ويسرة السرير مرّة، حتّى انتهى به إلى القبر ، فنزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتّى لحّده وسوّى عليه اللبن، وجعل يقول: ناولني حجراً، ناولني تراباً رطباً، يسدّ به ما بين اللبن. فلمّا أن فرغ وحثا التراب عليه وسوّى قبره، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّي لأعلم أنّه سيبلى ويصل إليه البلى، ولكنّ الله عزّوجلّ يحبّ عبداً إذا عمل عملا فأحكمه.

فلمّا أن سوّى التربة عليه، قالت أُمّ سعد من جانب: هنيئاً لك الجنّة. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا أُمّ سعد مه، لا تجزمي على ربّك، فإنّ سعداً قد أصابته ضمّة.

قال: فرجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورجع الناس، فقالوا: يا رسول الله، لقد رأيناك صنعت على سعد، ما لم تصنعه على أحد، إنّك تبعت جنازته بلا رداء ولا حذاء.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ الملائكة كانت بلا حذاء ولا رداء فتأسّيت بها.

قالوا: فكيف تأخذ يمنة السرير مرّة، ويسرة السرير مرّة؟

قال: كانت يدي في يد جبرئيل، آخذ حيثما أخذ.

فقالوا: أمرت بغسله، وصلّيت على جنازته، ولحّدته، ثمّ قلت: إنّ سعداً أصابته ضمّة!

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: نعم، إنّه كان في خُلقه مع أهله سوء»[٢١٦].

نعم، إنّ سوء خلق سعد أدّى به إلى الوقوع في أهوال ضمّة القبر، وعقوبات عالم البرزخ، رغم أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعا له وصلّى عليه، وشيّعته الملائكة وجبرئيل، وكان له في الإسلام سوابق ناصعة، وصحائف بيضاء. ولا عجب في ذلك، فالله عدل، لاتجوزه مظلمة، وإن غُلّف صاحبها بأغلفة العبادة والطاعة.

الجود والبخل

خصلتان متقابلتان، إحداهما تجعل الإنسان محبوباً في المجتمع، والأُخرى تجعله مبغوضاً.. فالجواد هو المحبوب، والبخيل هو المكروه.

وهما سجيّتان، فلا يلازم الجود الثروة، ولا البخل الفقر، فربّ بخيل غني، وربّ جواد فقير.

---

(٢١٥) مستدرك الوسائل:ج١٢ ص٧٥ ح١٣٥٥١، بحار الأنوار:ج٧٠ ص٢٩٦ ح٤.

(٢١٦) بحار الأنوار: ج٧٠ ص٢٩٨ ح١١، أمالي الصدوق: ص٣٨٤ ح٢، روضة الواعظين: ج٢ ص٣٧٧.

هذا ولا يخفى: إنّ هناك منزلة بين الإسراف والبخل، ألا وهي الجود المثنى عليه عقلاً وشرعاً، فقد قال تعالى عن لسان لقمان الحكيم الذي أوصى ابنه فقال: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾(٢١٧).

ثم إنّ الملفت للانتباه هو: أنّ البخيل إنّما يضيّع على نفسه المدح والراحة في الدنيا، والثواب والأجر في الأُخرى، فقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ * إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ * هَا أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ الله فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾(٢١٨).

أجل، إنّ الإنسان لو نظر إلى واقع المال في الدنيا، وعلم أنّه وديعة «ولابدّ يوماً أن ترد الودائع» فإنّه لن يبخل أبداً بما عنده ولايمنّ بما يعطي قطّ.

فعن الإمام الصادق عليه السلام: «إن كان الخلف من الله عزّوجلّ حقّاً، فالبخل لماذا»(٢١٩).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «خصلتان لا تجتمعان في مسلم البخل وسوء الخُلُق»(٢٢٠).

وعن الفضل بن أبي قرّة قال: رأيت أبا عبد الله عليه السلام يطوف من أوّل الليل إلى الصباح، وهو يقول: «اللهمّ قني شحّ نفسي» فقلت: جعلت فداك، ما سمعتك تدعو بغير هذا الدعاء؟ قال: «وأي شيء أشدّ من شحّ النفس؟ إنّ الله يقول: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾(٢٢١)» (٢٢٢).

يا للعجب! هذا إمام معصوم مقرّب عند الله يدعو بهذا الدعاء، في خير بقعة، طيلة ليلته، أفلا يستحقّ التأمّل، وأخذ الحيطة، والاعتبار.

إنّ الدنيا قد تقبل على أقوام، وقد تدبر عن آخرين، فالمقبلة لاينقصها العطاء، والمدبرة لا يقيها البخل، وإنّما يبقى البخيل يتحسّر على كل حال.

ولذا فإنّ الإمام الصادق عليه السلام يقول: «عجبت لمن يبخل بالدنيا، وهي مقبلة عليه، أو يبخل بها، وهي مدبرة عنه، فلا الإنفاق مع الإقبال يضرّه، ولا الإمساك مع الإدبار ينفعه»(٢٢٣).

وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في الأبيات المنسوبة إليه:

---

(٢١٧) سورة الإسراء: ٢٩.

(٢١٨) سورة محمد: ٣٦ ـ ٣٨.

(٢١٩) من لا يحضره الفقيه: ج٤ ص٣٩٣ ح٥٨٣٦، الخصال: ج٢ ص٤٥٠ ح٥٥.

(٢٢٠) وسائل الشيعة: ج٩ ص٣٩ ح١١٤٧١، بحار الأنوار: ج٧٠ ص٣٠١ ح٩، الخصال: ج١ ص٧٥ ح١١٧.

(٢٢١) سورة التغابن: ١٦.

(٢٢٢) مستدرك الوسائل: ج٧ ص٣٠ ح٧٥٦٥، بحار الأنوار: ج٧٠ ص٣٠١ ح٧، تفسير القمّي: ج٢ ص٣٧٢.

(٢٢٣) روضة الواعظين: ج٢ ص٤٤٣، مشكاة الأنوار: ص٢٣١، بحار الأنوار: ج٧٠ ص٣٠٠ ح٣.

إذا جادت الدنيا عليك فجد بها

على الناس طرّاً قبل أن تتفلّت

فلا الجود يفنيها إذا هي أقبلت

ولا البخل يبقيها إذا هي ولّت[٢٢٤]

والبخيل بعيد عن الجنّة، قريب من النار، أو في النار لا محالة. فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «حرمت الجنّة على المنّان، والبخيل والقتّات» وهو النمّام[٢٢٥].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «لا يؤمن رجل فيه الشحّ والحسد والجبن، ولا يكون المؤمن جباناً ولا حريصاً ولا شحيحاً»[٢٢٦].

بل إنّ الشحيح في نظر الإسلام أكبر جرماً من الظالم، وقد بيّن سبب ذلك الإمام الصادق عليه السلام فقال: «إنّ علياً عليه السلام سمع رجلا يقول: الشحيح أعذر من الظالم، فقال: كذبت، إنّ الظالم يتوب ويستغفر الله، ويردّ الظلامة على أهلها، والشحيح إذا شحّ منع الزكاة والصدقة، وصلة الرحم، وإقراء الضيف، والنفقة في سبيل الله، وأبواب البرّ، وحرام على الجنّة أن يدخلها شحيح»[٢٢٧].

وقد سُئل حاتم الطائي: ممّن تعلّمت الجود؟ فقال: من البنّاء، رأيته ما لم يصرف ما في يده من جصّ وآجرة، لم يُعط جصّاً جديداً وآجرة أُخرى.

وإذا فحصنا عن سبب البخل لوجدنا أنّه ليس إلاّ الجشع، وسوء الظنّ، ولذا قال الإمام الصادق عليه السلام: «الشحّ المطاع: سوء الظنّ بالله عزّوجلّ»[٢٢٨].

وقد حذّر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من مشاورة البخيل فقال: «يا علي لاتشاور جباناً، فإنّه يضيّق عليك المخرج، ولا تشاور البخيل، فإنّه يقصر بك عن غايتك، ولا تشاور حريصاً، فإنّه يزيّن لك شرّها، واعلم يا علي: إنّ الجبن والبخل والحرص غريزة واحدة، يجمعها سوء الظنّ»[٢٢٩].

أجل، فالظنّ الحسن يهدي إلى الإقدام، ويشجّع الإنسان على الإعطاء وعدم الاكتراث بالمستقبل، فيرضى بالقسمة، إذ أنّه يرى فيما يبذل النجاح والغنى وضمان المستقبل، فلِمَ الجبن والبخل والحرص؟

وأخيراً، فإنّ السخي كما في الحديث: «قريب من الله، قريب من الجنّة، قريب من الناس، بعيد من

---

(٢٢٤) بحار الأنوار: ج٤٤ ص١٩١، إرشاد القلوب: ج١ ص١٣٨، ديوان أمير المؤمنين عليه السلام: ص٦٢.

(٢٢٥) بحار الأنوار: ج٧٢ ص٢٦٤ ح٤، أمالي الصدوق: ص٤٣١.

(٢٢٦) وسائل الشيعة: ج٩ ص٤٠ ح١١٤٧٣، بحار الأنوار: ج٦٤ ص٣٦٤ ح٦٨، الخصال: ج١ ص٨٢ ح٨.

(٢٢٧) قرب الإسناد: ص٣٥، بحار الأنوار: ج٧٠ ص٣٠٢ ح١٣، المستطرفات: ص٦٢٦.

(٢٢٨) وسائل الشيعة: ج٩ ص٤١ ح١١٤٧٦، بحار الأنوار: ج٧٠ ص٣٠٢ ح١١، الخصال: ج١ ص٨٤ ح١١.

(٢٢٩) بحار الأنوار: ج٧٢ ص٩٩ ح١١، علل الشرائع: ج٢ ص٥٥٩ ح١.

النار. والبخيل بعيد من الله، بعيد من الجنّة، بعيد من الناس، قريب من النار»[٢٣٠].

الجار والصديق

إنّ أولى الناس بالبرّ والصلة، وكفّ الأذى عنه بعد الأقرباء، هما: الجار والصديق، فقد أفردهما الله بالذكر في الكتاب الحكيم فقال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالا فَخُوراً﴾[٢٣١].

والجار الجنب: هو الجار الذي ليس بينك وبينه قرابة، والصاحب بالجنب: هو الصديق، أو الصديق في السفر.

فهما وصية الله وأهل البيت عليهم السلام.. يقول مروان الكلبي: أوصاني أبو عبد الله عليه السلام فقال: «أُوصيك بتقوى الله، وأداء الأمانة، وصدق الحديث، وحسن الصحابة لمن صحبت، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله»[٢٣٢].

وأكثر من ذلك: فإنّ الروايات قد هدّدت من لا يصحب مصاحبه بالحسنى، بالسخط ونفي كونه من أهل البيت عليهم السلام، فعن أبي الربيع الشامي قال: كنّا عند أبي عبد الله عليه السلام . والبيت غاصّ بأهله. فقال: «إنّه ليس منّا من لم يحسن صحبة من صحبه، ومرافقة من رافقه، وممالحة من مالحه، ومخالقة من خالقه»[٢٣٣] أي: في الدين، إتّباعاً لقوله تعالى: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾[٢٣٤].

وربما يتصوّر البعض أنّ الصديق هو المرافق المستمرّ فقط، فنقول لمن يذهب إلى ذلك: إليك الحديث التالي، فعن أبي جعفر عليه السلام: «أخلص ودّك للمؤمن، وإن جالسك يهودي، فأحسن مجالسته»[٢٣٥].

وقد ضرب لذلك أمير المؤمنين عليه السلام مثالا عمليّاً. كما هو شأن الهداة من آل محمّد (صلوات الله

---

(٢٣٠) انظر بحار الأنوار: ج٦٨ ص٣٥٦ عن أبي الحسن الرضا عليه السلام ح١٨.

(٢٣١) سورة النساء: ٣٦.

(٢٣٢) الكافي: ج٢ ص٦٦٩ ح١، بحار الأنوار: ج٧١ ص١٦٠ ح١٦.

(٢٣٣) الكافي: ج٤ ص٢٨٦ ح٤، من لا يحضره الفقيه: ج٢ ص٢٧٤ ح٢٤٢٣، مستدرك الوسائل: ج٨ ص٣١٦ ح٩٥٣٦.

(٢٣٤) سورة المجادلة: ٢٢.

(٢٣٥) من لا يحضره الفقيه: ج٤ ص٤٠٤ ح٥٨٧٢، وسائل الشيعة: ج١٢ ص٢٠١ ح١٦٠٨٧، بحار الأنوار: ج٧١ ص١٥٢ ح١١.

عليهم أجمعين) . وذلك عندما رافق يهودياً في إحدى الطرق..

فعن الإمام الباقر عليه السلام: «إنّ علياً عليه السلام صاحب رجلا ذمّياً، فقال له الذمّي: أين تريد، يا عبد الله؟ قال: أُريد الكوفة، فلمّا عدل الطريق بالذمّي، عدل معه علي عليه السلام، فقال له الذمّي: أليس زعمت تريد الكوفة؟ قال: بلى، فقال له الذمّي: فقد تركت الطريق؟ فقال له: قد علمت، فقال له: فلِمَ عدلت معي وقد علمت ذلك؟ فقال له علي عليه السلام: هذا من تمام حسن الصحبة أن يشيّع الرجل صاحبه هنيئة إذا فارقه، وكذلك أمرنا نبيّنا، فقال له: هكذا؟ قال: نعم ، فقال له الذمّي: لا جرم إنّما تبعه من تبعه لأفعاله الكريمة، وأنا أُشهدك أنّي على دينك، فرجح الذمّي مع علي عليه السلام فلمّا عرفه أسلم»(٢٣٦).

والجار الذي أمر الرسول صلى الله عليه وآله بصلته يعرّفه الحديث التالي:

عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أتاه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، إنّي اشتريت داراً في بني فلان، وإنّ أقرب جيراني منّي جواراً من لا أرجو خيره، ولا آمن شرّه، قال: فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله علياً وسلمان وأبا ذرّ . قال الراوي: ونسيت واحداً، وأظنّه المقداد . فأمرهم أن ينادوا في المسجد بأعلى أصواتهم: «إنّه لا إيمان لمن لم يؤمن جاره بوائقه» فنادوا ثلاثاً. ثمّ أمر صلى الله عليه وآله فنودي: «إنّ كل أربعين داراً: من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، يكون ساكنها جاراً له»(٢٣٧).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته عند وفاته: «الله الله في جيرانكم، فإنه وصية نبيّكم، ما زال يوصي بهم، حتّى ظننا إنّه سيورّثهم»(٢٣٨).

وعن الإمام الصادق عليه السلام:«ملعون ملعون من آذى جاره» (٢٣٩).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «حسن الجوار يزيد في الرزق»(٢٤٠).

السعي في الحوائج

المجتمع الحي هو المجتمع الذي بنى أمره على التعاون والتكاتف، فكل فرد منه يعاضد الآخر في حوائجه، ويشاركه في أحزانه وأفراحه، فترى إنّه إذا نزلت نازلة على أحد هبّ الجميع لمنازلتها وعلاجها،

---

(٢٣٦) بحار الأنوار: ج٤١ ص٥٣ ح٥، قرب الإسناد: ص٧.

(٢٣٧) بحار الأنوار: ج٧١ ص١٥٢ ح١٢.

(٢٣٨) بحار الأنوار: ج٧١ ص١٥٣ ح١٦، نهج البلاغة: ق٤٧، من وصية له عليه السلام للحسن والحسين لما ضربه ابن ملجم (لعنه الله).

(٢٣٩) وسائل الشيعة: ج١٦ ص٢٨٠ ح٢١٥٥٥، مستدرك الوسائل: ج٨ ص٤٢١ ح٩٨٦٧، بحار الأنوار: ج٧١ ص١٥٣ ح١٧.

(٢٤٠) الكافي: ج٢ ص٦٦٦ ح٣، وسائل الشيعة: ج١٢ ص١٢٣ ح١٥٨٣١، بحار الأنوار: ج٧١ ص١٥٣ ح١٤.

وإذا احتاج فرد إلى حاجة سعى الكل لقضائها وإنجاحها[٢٤١].

ومن المعلوم: إنّ أمر المجتمع قائم على التبادل، فمن سعيت له سعى لك، ومن شاركته همومه شاركك همومك.. وهكذا.

وفي الحقيقة إنّ الذي يهتمّ بأُمور الآخرين إنّما يهتم بأُموره، وكل من ينفرد بحوائج نفسه ويتخلّى عن الناس، فإنّما يتخاذل عن نفسه، إذ لا يعير له أحد أي اهتمام، ولا يسعى له في حاجة.

ومن جانب آخر فإنه كلّما زاد تعاون الأُمّة، زاد رقيّها، والعكس بالعكس ، فإنّه كلّما انفمصت الأواصر بينهم، كثر الخمول والانحطاط.

ومن هنا فإنّ الإسلام أمر بالتعاون والتكاتف، فقال عزّ من قائل: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[٢٤٢].

كما أنّ التعاون سمة الجماعة الناشطة، والتخاذل طابع الأُمّة الخاملة، ففي الحديث أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أوحى الله تبارك وتعالى إلى داود عليه السلام: يا داود إنّ العبد ليأتيني بالحسنة يوم القيامة، فأُحكِّمه في الجنّة، قال داود: يا ربّ، وما هذا العبد الذي يأتيك بالحسنة يوم القيامة فتُحكِّمه بها في الجنّة ؟ قال: عبد مؤمن سعى في حاجة أخيه المسلم، أحبّ قضاءها، قضيت له أم لم تقض»[٢٤٣].

وقد أكّد الإسلام على السعي الحثيث في قضاء الحاجات، ورغّب فيه بشدّة، وجعل لكل قضاء حاجة ثواباً كثيراً وجزاءً جميلا. فعن الإمام السجّاد عليه السلام قال: «من قضى لأخيه حاجته، فبحاجة الله بدأ وقضى الله له بها مائة حاجة، في إحداهنّ الجنّة. ومن نفّس عن أخيه كربة، نفّس الله عنه كرب القيامة، بالغاً ما بلغت. ومن أعانه على ظالم له، أعانه الله على إجازة الصراط، عند دحض الأقدام. ومن سعى له في حاجته حتّى قضاها فسرّ بقضائها، فكان كإدخال السرور على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ومن سقاه من ظمأ، سقاه الله من الرحيق المختوم. ومن أطعمه من جوع أطعمه الله من ثمار الجنّة. ومن كساه من عري، كساه الله من استبرق وحرير. ومن كساه من غير عري، لم يزل في ضمان الله ما دام على المكسي من الثوب سلك. ومن كفاه بما هو يمتهنه، ويكفّ وجهه، ويصل به ولده، أخدمه الله الولدان المخلّدين. ومن حمله من رحله، بعثه الله يوم القيامة إلى الموقف على ناقة من نوق الجنّة يباهي به الملائكة. ومن كفنه عند موته، فكأنّما كساه من يوم ولدته أُمّه إلى يوم يموت. ومن زوّجه زوجة يأنس بها، ويسكن إليها، آنسه الله في قبره، بصورة أحبّ أهله إليه. ومن عاده عند مرضه، حفّته الملائكة، تدعو له حتّى ينصرف، وتقول: طبت وطابت لك الجنّة، والله لقضاء حاجته، أحبّ إلى الله من صام شهرين

---

(٢٤١) راجع كتاب (فقه الاجتماع) للمؤلّف قدس سره.

(٢٤٢) سورة المائدة: ٢.

(٢٤٣) وسائل الشيعة: ج١٦ ص٣٦٨ ح٢١٧٨٤، بحار الأنوار: ج١٤ ص٣٦ ح١١، أمالي الطوسي: ص٥١٥ ح١١٢٧.

متتابعين باعتكافهما في الشهر الحرام»[٢٤٤].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «ما قضى مسلم لمسلم حاجة إلاّ ناداه الله: عليّ ثوابك، ولا أرضى لك بدون الجنّة»[٢٤٥].

الصدق

إنّ الصدق واستقامة اللسان علامة على استقامة القلب وصدقه، كما أنّ التواء اللسان، ليس إلاّ أثراً من آثار التواء القلب واعوجاجه.

إنّ كثيراً من الناس يزعم أنّه يتمكّن من الالتواء في قوله ثمّ إخفاؤه على الناس، لكن لو انطلى عليهم ذلك مرّة أو مرّتين، فإنّه لن ينطلي عليهم مرّات ومرّات.

فالكذّاب يبقى يكذب ويكذب، حتّى تبدو عورته بين الناس، فلايصدّقه أحد في حديث، ولا يقبل له خبر.

بل إنّ الصدق والكذب لا يدوران مدار اللسان.. وإنّما يدوران مدار الأفئدة، فإذا صدقت الأفئدة صدق اللسان، وصدقت اليد والرجل، وهكذا ، وإذا كذبت كذبت كلّها، فإنّ القلب الآثم إذا التاث بالانحراف يكذب، ويرائي ، ويحبّ أن يحمد بما لم يفعل، ويخلف الوعد، ويخون، وإلى آخره.

وإلى هذا المعنى يشير الإمام الباقر عليه السلام حيث يقول: «إنّ الكذب هو خراب الإيمان»[٢٤٦]. ناهيك عن أنّ الكذّاب عادةً لا يحصل على بغيته، إذ أنّه يكذب ليكسب عزّاً أو مالاً أو جاهاً.. لكنّه لا يلبث طويلا حتّى يعرف عند الناس بالكذب، فلا يصدّق له قول ولا يوقّر له حديث، بل إنّه يخسر فوق ذلك أحاديثه الصادقة ، ووعوده التي ينوي الوفاء بها.

فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «ينبغي للرجل المسلم أن يجتنب مواخاة الكذّاب، فإنّه يكذب حتّى يجيء بالصدق فلا يصدّق»[٢٤٧].

وقد نُقل إنّ راعياً كان يكذب كلّما رعى غنمه، فيصيح: أيّها الناس، الذئب، الذئب. فإذا اجتمع الناس لمساعدته سخر منهم وضحك عليهم وزعم أنّه كان يمازحهم بذلك، وفي يوم من الأيّام توجّه نحو غنمه ذئب، فأخذ يصيح الراعي حينئذ بكل صوته، ومن كل قلبه بحرارة وصدق، لكن الناس لم يأبهوا

---

(٢٤٤) وسائل الشيعة: ج١٦ ص٣٤٣ ح٢١٧١٦، بحار الأنوار: ج٧١ ص٣٠٣ . ٣٠٤ ح٤٧.

(٢٤٥) الكافي: ج٢ ص١٩٤ ح٧، وسائل الشيعة: ج١٦ ص٣٥٨ ح٢١٧٥٦، مستدرك الوسائل: ج٢ ص٤٠٣ ح١٤٤٢٢.

(٢٤٦) الكافي: ج٢ ص٣٣٩ ح٤، وسائل الشيعة: ج١٢ ص٢٤٤ ح١٦٢٠٧، بحار الأنوار: ج٦٩ ص٢٤٧ ح٨.

(٢٤٧) الكافي: ج٢ ص٣٤١ ح١٤، وسائل الشيعة: ج١٢ ص٢٤٤ ح١٦٢٠٩، بحار الأنوار: ج٦٩ ص٢٥٠ ح١٧.

به، حتّى أخذ الذئب بعض أغنامه.

ويقال: إنّ شاباً كان إذا سبح مع زملائه، ابتعد عنهم قليلا، ثمّ صاح: الغرق الغرق، النجدة النجدة، فإذا أدركوه ليساعدوه وينقذوه، سبح وضحك عليهم وزعم أنّه يلاطفهم. وفي يوم من الأيّام أصابه الغرق حقيقة، فأخذ يصرخ ويستنجد زملاءه ليخلّصوه ولكن بلا جدوى، إذ لم يلتفت إليه أحد، ظنّاً منهم أنّه يكذب عليهم كالمرّات السابقة، فتركوه حتّى قضي الأمر وهلك غرقاً.

والظريف: إنّ الكذّاب قليل الذاكرة. وهو طبيعي، لأنّ الذي يبقى في الذاكرة هو العمل، أمّا نسج اللسان فيتلاشى في الهواء. فهو ينسى ما قال، حتّى يفتضح إذا استفسر. ولذا فإنّ الإمام الصادق عليه السلام يقول: «إنّ ممّا أعان الله على الكذّابين النسيان»(٢٤٨). وعن عيسى بن مريم عليهما السلام قال: «من كثر كذبه ذهب بهاؤه»(٢٤٩).

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ الكذب هو كذب على كل حال، وليس فيه جدّ وهزل، وهو يسقط المروءة، ويصادر كرامة الإنسان، ولذلك يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «لا يجد عبد طعم الإيمان، حتّى يترك الكذب، هزله وجدّه»(٢٥٠).

إنّ لاستقامة اللسان طعماً خاصاً، كسائر ملكات النفس الفاضلة، فكما أنّ العلم والحلم، والإخلاص والرأفة، لها مذاق حلو، كذلك الصدق له مذاق حلو في كل شيء.

بل إنّ الكاذب والمخلف، لا يمضي عليه زمان، حتّى ينطبع على تلوّن في القلب فيصبح له ظاهر وباطن متخالفان، وهذا هو النفاق بعينه.

إذن: فلا عجب أن يكون الكذب شرّاً من الخمر، مع أنّ الخمر هو مفتاح كلّ شرّ ، فعن الباقر عليه السلام: «إنّ الله عزّوجلّ جعل للشرّ أقفالا، وجعل مفاتيح تلك الأقفال: الشراب، والكذب شرّ من الشراب»(٢٥١).

ولا يخفى أنّ للكذب مراتب ودرجات، منها: الافتراء على الله، والبدعة في الدين، ودعوى ما ليس له من رسالة أو وصاية أو نحوها.

هناك في بعض الأحيان قد يفلت زمام اللسان من يد الإنسان، فيكذب كذبة ثمّ يندم، فإنّ مثل هذا ليس بكذّاب ولا يترتّب على فعله هذا ما يترتّب على فعلة الكذّاب، من ذهاب البهاء وعدم التصديق والعقاب. ولذا يقول الإمام الصادق عليه السلام في جواب من سأله عن الكذّاب قائلا: هل

---

(٢٤٨) الكافي: ج٢ ص٣٤١ ح١٥، وسائل الشيعة: ج١٢ ص٢٤٥ ح١٦٢١٠.

(٢٤٩) الكافي: ج٢ ص٣٤١ ح١٣، وسائل الشيعة: ج١٢ ص٢٤٤ ح١٦٢٠٨، بحار الأنوار: ج١٤ ص٣٣٠ ح٦٩.

(٢٥٠) الكافي: ج٢ ص٣٤٠ ح١١، وسائل الشيعة: ج١٢ ص٢٥٠ ح١٦٢٢٢، تحف العقول: ص٢١٦.

(٢٥١) الكافي: ج٢ ص٣٣٨ ح٣، وسائل الشيعة: ج١٢ ص٢٤٤ ح١٦٢٠٦، ثواب الأعمال: ص٢٤٤.

الكذّاب هو الذي يكذب في الشيء؟ فقال عليه السلام: «لا، ما من أحد إلاّ ويكون ذاك منه، ولكن المطبوع على الكذب»[٢٥٢].

الكذب مفتاح الرياء

قلنا سابقاً: إنّ الكذب هو شرّ من شرب الخمر الذي هو مفتاح كل شرّ وباب كلّ رذيلة وسيّئة، وذلك لأنّ للكذب شُعُباً كثيرة ربما تفوق الإحصاء إلاّ أنّ أبرزها هو: الرياء، الذي معناه أنّ الرجل يعمل عملاً يريد به وجه الناس ورضاهم ـ لغاية أو لغير غاية ـ وهو يُظهر أنّه يريد وجه الله.

ومن المعلوم، إنّ الله تعالى لا ينطلي عليه هذا العمل، فهو الخبير بالسرائر والمحيط بالنوايا، والعامل كذلك يخسر ودّ الناس، ويخسر رضا الله تعالى الذي يعلم سريرته، ثمّ إنّه بمرور الزمن يظهر للناس قصده، فيسقط من أعينهم.

هذا مضافاً إلى ما ورد: من أنّ الله تعالى يترك المرائي ونفسه، ويترك له عمله ليأخذه أجره وثوابه ممّن جعل عمله رياءً له.

وإلى هذا المعنى يشير الإمام الصادق عليه السلام في قوله لعباد بن كثير البصري: «ويلك يا عباد؟ إيّاك والرياء، فإنّه من عمل لغير الله، وكله الله إلى من عمل له»[٢٥٣].

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قيل: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء، يقول الله عزّوجلّ يوم القيامة ـ إذا جازى العباد بأعمالهم ـ: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا هل تجدون عندهم ثواب أعمالكم»[٢٥٤].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «قال الله عزّوجلّ: أنا خير شريك، من أشرك معي غيري في عمله، لم أقبله إلاّ ما كان لي خالصاً»[٢٥٥].

فكما أنّ الشريكين في متجر، أو في معمل، أو في أرض، أو ما شابه ذلك، إذا وهب أحدهما حصّته لشريكه كان خيراً، فكذلك الحال بالنسبة للباري تعالى، فإنّ العمل المشترك: إن كان خيراً، فالله يهب حصّته لشريكه، وإن لم يكن خيراً، فالله لا يجازي إلاّ على الخير.

يبقى القول بأنّ المرائي إنّما يرائي ليحصل على الذكر الحسن، والسمعة الطيّبة، والصيت المحمود، ولا يعلم أنّ الطريق إلى هذه لايكون إلاّ من خلال الإخلاص، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «ما من عبد يُسرّ

---

(٢٥٢) الكافي: ج٢ ص٣٤٠ ح١٢، وسائل الشيعة: ج١٢ ص٢٤٥ ح١٦٢١٢، بحار الأنوار: ج٦٩ ص٢٥٠ ح١٥.

(٢٥٣) الكافي: ج٢ ص٢٩٣ ح١، وسائل الشيعة: ج١ ص٦٥ ح١٤٣، بحار الأنوار: ج٦٩ ص٢٦٦ ح١ .

(٢٥٤) بحار الأنوار: ج٦٩ ص٢٦٦ ح١، مستدرك الوسائل: ج١ ص١٠٦ ح١٠٨.

(٢٥٥) الكافي: ج٢ ص٢٩٥ ح٩، وسائل الشيعة: ج١ ص٦١ ح١٣١.

خيراً، إلاّ لم تذهب الأيّام حتّى يظهر الله تعالى له خيراً، وما من عبد يُسرّ شرّاً، إلاّ لم تذهب الأيّام ، حتّى يظهر له شرّاً»(٢٥٦).

شهادة الزور

ومن الكذب أيضاً: شهادة الزور، وهي ذنب فضيع من خلالها تبتزّ الأموال من أصحابها، وتهدر الحقوق عن ذويها، وتلحق الأولاد بغير آبائهم، وتثبت المناصب لغير أهلها، وغير ذلك. ولذا فإنّ الله تعالى لما يصف عباده المؤمنين يصفهم بنزاهتهم عن هذه الرذيلة وذلك حيث يقول: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾(٢٥٧).

والعجيب حقّاً أنّ شاهد الزور يقترف الوزر حتّى يهنأ غيره، ناهيك عن أنّه يجرّ إلى نفسه الويل والعذاب مرّتين: إذ أنّه غالباً ما يشهد مقابل الرشى ، وبذلك يحتقب إثمين: إثم الزور، وإثم الرشوة.

وعلى كل حال: فإنّ الله جعل لكل شيء سبباً، فمن سعى في طلب الرزق الحلال، من المورد الحلال، وذلك بأن مشى عدلاً، وقال صدقاً، سيق إليه الجاه والمال واكتسب محبّة المؤمنين، فلِمَ يسعى الإنسان في طلب الحرام، من المورد الحرام، فيملأ بطنه من السحت، ويريق ماء وجهه بالزور، ويكتسب صداقة خائن؟

خلف الوعد

ومن الكذب أيضاً: خلف الوعد، ويقابله الوفاء بالوعد، فقد مدح الله تعالى النبي إسماعيل عليه السلام بوفائه للوعد فقال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾(٢٥٨).

وإنّ الوفاء يدلّ على عظمة الإيمان وشدّة الالتزام بمناهج السماء.. والذي لا يريد الوفاء فالأحرى به أن لا يعد الناس، إذ خُلف الوعد أثقل من مجابهة الردّ.

هذا من جانب، ومن جانب آخر: إنّ الخلف من صفات المنافقين، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أربع من كنّ فيه فهو منافق، وإن كانت فيه واحدة منهنّ، كانت فيه خصلة من النفاق، حتّى يدعها: من إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»(٢٥٩).

إنّ الإنسان الذي يعد أحداً وهو ينوي الوفاء ثمّ يقع في الحرج فلا يتمكّن من الوفاء إنّما نوى خيراً ولا يلام عليه، ولكن الذي يعد وهو ينوي الخلف، أو يعاهد وفي ضميره الغدر، أو لايبالي بالمواعيد، فإنه

---

(٢٥٦) الكافي: ج٢ ص٢٩٥ ح١٢، وسائل الشيعة: ج١ ص٥٧ ح١١٩، بحار الأنوار: ج٦٩ ص٢٨٩ ح١٢ .

(٢٥٧) سورة الفرقان: ٧٢.

(٢٥٨) سورة مريم: ٥٤.

(٢٥٩) بحار الأنوار: ج٦٩ ص٢٦١ ح٣٤، الخصال: ج١ ص٢٥٤ ح١٢٩.

مذموم، بعيد عن الرفعة النفسية والخُلُق الجميل.

فعن أبي عبد الله عليه السلام: «ثلاثة لا عذر لأحد فيها: أداء الأمانة إلى البرّ والفاجر، والوفاء بالعهد للبرّ والفاجر، وبرّ الوالدين برّين كانا أو فاجرين»(٢٦٠).

ثمّ إنّ المجتمع السليم قائم على الوفاء، فالمعاملات والعقود ، والعهود والمواثيق، مع الدول وغيرها، والترابط بين البائع والمشتري، وغير ذلك من أشباه هذه الأُمور، كلّها تتوقّف على الوفاء. ولذا قال الإمام علي بن الحسين عليه السلام في جواب سؤال أبي مالك حيث قال: أخبرني بجميع شرائع الدين؟ قال: «قول الحقّ، والحكم بالعدل، والوفاء بالعهد»(٢٦١).

بل إنّ الوفاء بالعهد من علائم العدالة التي هي مناط الإمامة والقضاء، إذ أنّ من يخالف قوله عمله لا يؤمن على حدود الله وأحكامه.

ولذا فإنّ الإمام الصادق عليه السلام قال: «ثلاث من كنّ فيه، أوجبت له أربعاً على الناس، من إذا حدّثهم لم يكذبهم، وإذا خالطهم لم يظلمهم، وإذا وعدهم لم يخلفهم، وجب أن تظهر في الناس عدالته، وتظهر فيهم مروّته، وأن تحرم عليهم غيبته، وأن تجب عليهم أُخوّته»(٢٦٢). مضافاً إلى ذلك كلّه: إنّ الموفي بالعهد متقرّب في الآخرة إلى الله زلفى، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «أقربكم غداً منّي في الموقف أصدقكم للحديث وأداء الأمانة، وأوفاكم بالعهد، وأحسنكم خلقاً، وأقربكم من الناس»(٢٦٣).

إنّها حقّاً خصال جميلة، تقرّب الشخص إلى الله ورسوله وإلى الناس، وتحبّبه لديهم، بل إنّها جوامع الخير، ومجامع الأخلاق، ومشاعل طرق الإنسانية الرفيعة.

النفاق

ومن الكذب أيضاً: النفاق، بل إنّه من أسوأ شُعب الكذب، إذ أنّ الكاذب يكذب، حتّى تستولي خصال المنافقين عليه فيصبح بعيداً عن كل معنى الشرف.

فعن الإمام الباقر عليه السلام: «بئس العبد عبد يكون ذا وجهين، وذا لسانين، يطري أخاه شاهداً، ويأكله غائباً، إن أعطى حسده، وإن ابتلي خذله»(٢٦٤).

---

(٢٦٠) الكافي: ج٥ ص١٣٢ ح١، التهذيب: ج٦ ص٣٥٠ ح١٠٩، بحار الأنوار: ج٧١ ص٧٠ ح٤٦، الخصال: ج١ ص١٢٣ ح١١٨.

(٢٦١) مستدرك الوسائل: ج١١ ص٣١٦ ح١٣١٣٩، بحار الأنوار: ج٧٢ ص٢٦ ح١٠، الخصال: ج١ ص١٣ ح٩٠.

(٢٦٢) بحار الأنوار: ج٦٧ ص١ ح٢، الخصال: ج١ ص٢٠٨ ح٢٩.

(٢٦٣) بحار الأنوار: ج٦٦ ص٣٧٥ ح٢٢، الأمالي للطوسي: ص٢٢٩ ح٤٠٣.

(٢٦٤) الكافي: ج٢ ص٣٤٣ ح٢، مستدرك الوسائل: ج٩ ص٩٦ ح١٠٣٢٦.

نعم، إنّه بئس العبد، وإلاّ ما ذا يعني الإنسان من إظهاره بأنّه صديق للآخرين والحال أنّه من ألدّ أعدائهم؟

فالعدو عدو لا غير، والصديق صديق لا غير، وقد تلبّس هذا الإنسان بهما نفاقاً ودجلاً.

ولذا فإنّ الإمام الصادق عليه السلام يقول: «من لقي الناس بوجه، وعابهم بوجه، جاء يوم القيامة وله لسانان من نار»[٢٦٥].

وقد أوحى الله إلى عيسى بن مريم عليهما السلام: «يا عيسى، ليكن لسانك في السرّ والعلانية لساناً واحداً وكذلك قلبك. إنّي أُحذّرك نفسك، وكفى بي خبيراً. لا يصلح لسانان في فم واحد، ولا سيفان في غمد واحد، ولا قلبان في صدر واحد»[٢٦٦].

العدل والنصفة

إنّ أجمل شيء عند الإنسان، وأسهل أمر لديه وخاصّة فيما يطالب به ويدّعيه، هو العدل والنصفة. وهو في نفس الوقت أثقل شيء وأصعب أمر عليه في مجال الأخذ به، ومرحلة تطبيقه والعمل به، فترى كل إنسان يمدح العدل ويتشدّق به، لكنّه إذا وصل إلى مرحلة تطبيق العدل بنفسه أو عليه رأيته يتثاقل منه ويستعصي عليه.

وحيث إنّ بالعدل قامت السماوات والأرض، وبها حياة الإنسان وسعادته، وتقدّمه ورقيّه، أكّدت الآيات الكريمة والروايات الشريفة على التحلّي به والانقياد إليه، حتّى وإن كان في مجال التطبيق على النفس أو الأهل أو الأقربين.

وإلى هذا المعنى يشير الباري تعالى قائلا: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾[٢٦٧]. وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوْ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ...﴾[٢٦٨].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْم عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[٢٦٩].

بل إنّ الله عدل، خلق العالم بالعدل، وقدّر أقوات الناس وأنصبتهم من السعة والضيق بالعدل، فهو لا يأمر إلاّ بالعدل، ولايجازي بالجور، وقد صرّح بذلك في كتابه الكريم فقال: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي

---

(٢٦٥) وسائل الشيعة: ج١٢ ص٢٥٦ ح١٦٢٤١، بحار الأنوار: ج٧٢ ص٢٠٣ ح٣، مشكاة الأنوار: ص١٧٤.

(٢٦٦) الكافي: ج٢ ص٣٤٣ ح٣، وسائل الشيعة: ج١٢ ص٢٥٨ ح١٦٢٤٤.

(٢٦٧) سورة الأنعام: ١٥٢.

(٢٦٨) سورة النساء: ١٣٥.

(٢٦٩) سورة المائدة: ٨.

بِالْقِسْطِ﴾[٢٧٠] ، وقال: ﴿وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾[٢٧١]، وقال: ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[٢٧٢]، وقال عزّ من قائل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[٢٧٣].

من هنا يُعلم أنّ الذي لا يعدل يخرج عن قوانين الكون، ويخالف سنّة الله في الخلق.

ولا يخفى إنّ العدل على مراتب ودرجات كثيرة، أصعبها هي النصفة، إذ أنّه قد يعدل الشخص حتّى مع أقربائه وأحبّائه، لكن أن يعدل على نفسه، فيعطي الحقّ لذويه ويحرم نفسه، فهو ثقيل ينوء به ذوو الهمم العالية، فكيف بسائر الناس ؟

ففي الحديث عن الحذّاء قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «ألا أُخبرك بأشدّ ما افترض الله على خلقه؟ إنصاف الناس من أنفسهم، ومواساة الإخوان في الله عزّوجلّ: وذكر الله على كل حال، فإن عرضت له طاعة الله عمل بها وإن عرضت له معصية تركها»[٢٧٤].

أجل إنّ إنصاف الإنسان الناس من نفسه، وإذعانه بما لهم من حقّ عليه ، سواء أكان في الجانب الاجتماعي أم المالي أم غيرهما فيعطيهم الحقّ ويحرم نفسه، بل ويذهب ماء وجهه، ويواسي الإخوان في الحزن والفرح والمال والجاه، يكون شديداً وصعباً جدّاً، وحتّى يصل الإنسان إلى هذا المقام العالي يحتاج إلى ذكر الله على كل حال . لا أن يلهج بالذكر فقط . بل عليه أن يجعل الله أمام عينه، فلايحرّك يداً ولا رجلا، ولا تطرف له عين ولا تستشرف له أُذن، ولا يتحرّك له لسان، ولا يهيج له ملمس إلاّ في رضا الله تعالى.

هذا هو في الحقيقة معنى ذكر الله المطلوب، لا أن يقول: (سبحان الله) أو (الحمد لله) أو (لا حول ولا قوّة إلاّ بالله) فقط، فعن أبي المنذر قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «سيّد الأعمال ثلاثة: إنصاف الناس من نفسك، حتّى لا ترضى بشيء إلاّ رضيت لهم مثله، ومواساتك الأخ في المال، وذكر الله على كل حال، ليس سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله فقط، ولكن إذا ورد عليك شيء أمر الله عزّوجلّ به، أخذت به، وإذا ورد عليك شيء نهى الله عزّوجلّ عنه تركته»[٢٧٥].

إنّ باستطاعة الإنسان أن يربّي نفسه على الاستقامة، فيعدل في الحالات العادية والطبيعية في أعماله وأقواله، لكن قد ينحرف عن الاستقامة ويخرج عن الاستواء في الأحوال الطارئة، كالغضب الشديد،

---

(٢٧٠) سورة الأعراف: ٢٩.

(٢٧١) سورة الشورى: ١٥.

(٢٧٢) سورة الحجرات: ٩.

(٢٧٣) سورة الحديد: ٢٥.

(٢٧٤) وسائل الشيعة: ج١٥ ص٢٨٥ ح٢٠٥٣٢، بحار الأنوار: ج٧٢ ص٢٧ ح١٣، الأمالي للمفيد: ص٣١٧ ح١.

(٢٧٥) بحار الأنوار: ج٧٢ ص٣١ ح٢٤، الكافي: ج٢ ص١٤٤ ح٣.

والفرح البالغ.. ولذا ينبغي على الإنسان أن يراقب نفسه في مثل هذه الأحوال كي تصفو نفسه وتصل إلى معالي الكمال الذي أراده الله تعالى لها.

ففي الحديث: «إنّ رسول الله ﷺ مرّ بقوم يرفعون حجراً، فقال: ما هذا؟ قالوا: نعرف بذلك أشدّنا وأقوانا، فقال ﷺ: ألا أُخبركم بأشدّكم وأقواكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: أشدّكم وأقواكم الذي إذا رضي لم يدخله رضاه في إثم ولا باطل، وإذا سخط لم يخرجه سخطه من قول الحقّ، وإذا قدر لم يتعاط ما ليس له بحقّ»[٢٧٦].

إنّ من يترك الحقّ والعدل ويركن إلى الظلم والجور لو رجع إلى نفسه وخاطبها قائلا: لماذا هذا الركون إلى الظلم والجور؟ أخشية من الفقر أم خوفاً من الضياع؟ ثم يذكّر نفسه: بأنّه ألم يكن الله عزّوجلّ قد ضمن هذين الأمرين لكل من يقول الحقّ والعدل ويعمل بهما؟ ألم يكن الإمام الصادق عليه السلام قد قال: «ما ناصح الله عبد في نفسه، فأعطى الحقّ منها، وأخذ الحقّ لها، إلاّ أُعطي خصلتين: رزق من الله يسعه، ورضى عن الله ينجيه»[٢٧٧].

وفضلاً عن ذلك كلّه فإنّ عاقبة الظلم وخيمة، وإنّ الله للظالم بالمرصاد، يريه نتيجة ظلمه في الدنيا قبل الآخرة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾[٢٧٨] ، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَب يَنقَلِبُونَ﴾[٢٧٩] ، ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً﴾[٢٨٠] ، ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[٢٨١].

وقال رسول الله ﷺ : «إيّاكم والفحش، فإنّ الله عزّوجلّ لايحبّ الفاحش المتفحّش، وإيّاكم والظلم، فإنّ الظلم عند الله هو الظلمات يوم القيامة ، وإياكم والشح، فإنّه دعا الذين من قبلكم حتّى سفكوا دماءهم، ودعاهم حتّى قطعوا أرحامهم، ودعاهم حتّى انتهكوا واستحلّوا محارمهم»[٢٨٢].

ناهيك عن أنّ الظلم . هو قبل كل شيء . دليل على عدم الخوف من الله تعالى، إذ أنّ الظالم لو خاف الله، وحذر عقابه، ورجا ثوابه، لم يظلم. وإلى ذلك يشير الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول:

---

(٢٧٦) معاني الأخبار: ص٣٦٦، من لا يحضره الفقيه: ج٤ ص٤٠٧ ح٥٨٨٢.

(٢٧٧) بحار الأنوار: ج٧٢ ص٢٨ ح١٧، المحاسن: ج١ ص٢٨ ح١١، وسائل الشيعة: ج١٥ ص٢٨٦ ح٢٠٥٣٤.

(٢٧٨) سورة يونس: ١٣.

(٢٧٩) سورة الشعراء: ٢٢٧.

(٢٨٠) سورة الفرقان: ٣٧.

(٢٨١) سورة المائدة: ٥١.

(٢٨٢) بحار الأنوار: ج٧٠ ص٣٠٣ ح١٦، وسائل الشيعة: ج٩ ص٤٢ ح١١٤٧٨.

«من خاف ربّه كفّ ظلمه»[٢٨٣] .

هذا والظالم معاقب على كل حال.

وقال رسول الله ﷺ: «دعوة المظلوم مستجابة»[٢٨٤].

وفي بيت من الحكمة معروف:

تنام عيناك والمظلوم منتبـه يدعو عليك وعين الله لم تنم[٢٨٥]

ثمّ إنّ أشدّ الظلم: ظلم من لا يجد له ناصراً إلاّ الله عزّوجلّ، فلا يزعم الظالم أنّه غير متدارك، وأنّه يفوت على الله سبحانه، فعن رسول الله ﷺ أنّه قال: «يقول الله عزّوجلّ: اشتدّ غضبي على من ظلم من لا يجد ناصراً غيري»[٢٨٦].

وهناك أمر مهم ينبغي الالتفات إليه والاتّعاظ به وهو: أنّه كما أنّ من يشرب الخمر يتسرّب ضررها إلى عقبه، ومن يتعاطى المخدّرات يتعدّى فسادها إلى أولاده ،كذلك من يظلم أحداً فإنّه يعاقب ولو في أولاده، وهذه سنّة الله في الكون، وقد أشار إليها الإمام الصادق عليه السلام حيث قال لأحد أصحابه . وهو: عبد الأعلى مولى آل سام . مبتدئاً: «من ظلم سلّط الله عليه من يظلمه، أو على عقبه، أو على عقب عقبه، قال: فذكرت في نفسي فقلت: يظلم هو فيسلّط الله على عقبه أو على عقب عقبه، فقال لي قبل أن أتكلّم: إنّ الله يقول: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلا سَدِيداً﴾[٢٨٧]»[٢٨٨].

لسان السوء

إنّ هذه الجارحة . أعني اللسان . مع صغرها تقوم بأعمال عظيمة، إنّها تحتل بعد القلب المقام الأول بالنسبة إلى الأعضاء الرئيسية في الإنسان، ولذا يقال: «إنّما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه».

فمن اللسان يأتي الخير، ومنه يأتي الشرّ، وكلاهما عظيم.

فخيره: الإرشاد، والهداية، وقول الحقّ، والأمر بالحسنى، وأمثال ذلك.

---

(٢٨٣) من لا يحضره الفقيه: ج٤ ص٤٠٦ ح٥٨٨٠، بحار الأنوار: ج٧٢ ص٣٠٩ ح٣، الأمالي للصدوق: ص٣٢٠ ح٨ .

(٢٨٤) وسائل الشيعة: ج٧ ص١٣٠ ح٨٩٢٢، بحار الأنوار: ج٧٢ ص٣١٠ ح١١، الأمالي للطوسي: ص٣١٠ المجلس١١ ح٦٢٨.

(٢٨٥) ديوان أمير المؤمنين عليه السلام: ص٤٠٦.

(٢٨٦) وسائل الشيعة: ج١٦ ص٥٠ ح٢٠٩٥٥، بحار الأنوار: ج٧٢ ص٣٢٩ ح٦٠، الأمالي للطوسي: ص٤٠٥ ح٩٠٨.

(٢٨٧) سورة النساء: ٩.

(٢٨٨) مستدرك الوسائل: ج١٢ ص٩٨ ح١٣٦٢٥، تفسير العياشي: ج١ ص٢٢٣ ح٣٧.

وشرّه: الغيبة، والنميمة، والسعاية، والاستهزاء، وما أشبه ذلك.

وحيث إنّ الإسلام يريد للإنسان أن يكون لسانه طاهراً عن الأقذار، نظيفاً عن الحصائد الخبيثة فقد دعاه إلى عدّة أُمور منها:

الغيبة

١. ترك الغيبة: بأن لا يذكر الإنسان الآخرين في غيابهم بسوء، إذ أنّ كل أحد ـ ما خلا أفراد قلائل ـ تحوطه النواقص، فما الداعي إلى أن يشغل المرء نفسه بنقائص غيره، والحال إنّه مليء بالنواقص، من قرنه إلى قدمه؟

ففي كل إنسان توجد محسّنات ونقائص، فلماذا لا يشتغل الإنسان بإصلاح نقائص نفسه؟

علماً بأنّه إذا ذكر الإنسان مساوئ الغير قابلوه بمثلها وذكروا مساوئه، وذلك كما جاء في هذا البيت المشهور:

لسانك لا تبدي به عورة امرئ فعندك عورات وللناس ألسن

ثمّ إنّ الغيبة ـ مضافاً إلى المساوئ الماضية ـ تملأ الأفئدة بغضاً، وتشحنها حقداً، وتكدّر صفاء الأُخوّة والمحبّة بين الناس، وقد نهى الله عن ارتكابها، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾[٢٨٩].

فما أعظم هذا التعبير وأدقّه، وألطف هذا التنظير وأبلغه في زجر الإنسان عن الغيبة، وإبعاده عنها، إذ نفس الإنسان تمجّ أكل لحم الإنسان مطلقاً، فكيف بأكل لحم الأخ الميّت؟

ثمّ إنّ الغيبة تهدم الدين بسرعة، كما يهدم المرض العضال البدن السليم، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: الغيبة أسرع في دين الرجل المسلم، من الآكلة في جوفه»[٢٩٠].

والمؤلم حقّاً استسهال البعض وعدم تورّعهم من الوقوع في أعراض الناس إثر اغتيابهم لهم، غير مراعين شدّة التحريم لمثل هذه الخصلة المذمومة، فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال لنوف البكالي: «اجتنب الغيبة، فإنّها إدام كلاب النار» ثمّ قال عليه السلام: «يا نوف كذب من زعم أنّه ولد من حلال وهو يأكل لحوم الناس بالغيبة»[٢٩١].

وهناك البعض ممّن يزعم أنّه لو رأى بعينه المغتاب يرتكب القبيح فقد جاز له الكلام حوله، ولمثل

---

(٢٨٩) سورة الحجرات: ١٢.

(٢٩٠) الكافي: ج٢ ص٣٥٦ ح١، وسائل الشيعة: ج١٢ ص٢٨٠ ح١٦٣٠٦، بحار الأنوار: ج٧٢ ص٢٢٠ ح١، كشف الريبة: ص١٠.

(٢٩١) وسائل الشيعة: ج١٢ ص٢٨٣ ح١٦٣١٥، الأمالي للصدوق: ص٢٠٩ ح٩، مجموعة ورّام: ج٢ ص١٦٤.

هذه المزاعم يقول الإمام الصادق عليه السلام: «من قال في أخيه المؤمن، ما رأته عيناه، وسمعته أُذناه، فهو ممّن قال الله عزّوجلّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾[٢٩٢]»[٢٩٣].

النميمة

٢. ترك النميمة: بأن لا ينقل الإنسان كلام أحد إلى الآخرين من أجل التفرقة ونشر الفتنة، فإنّ هذا من أعمال المنافقين الذين لايخافون الله تعالى ويخالفون أمره بالتحبّب للآخرين والتآلف معهم، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّف مَهِين * هَمَّاز مَشَّاء بِنَمِيم﴾[٢٩٤].

وقد أراح النبي صلى الله عليه وآله النمّام مرّة واحدة، وصبّ على يديه ماء اليأس، فلا يترقّب الجنّة وهو نمّام ولم يتب، ففي مناهي النبي صلى الله عليه وآله أنّه نهى عن النميمة والاستماع إليها وقال: «لا يدخل الجنّة قتّات، يعني: نمّاماً» وقال صلى الله عليه وآله: يقول الله عزّوجلّ: حرمت الجنّة على المنّان، والبخيل والقتّات: وهو النمّام»[٢٩٥].

وقال الإمام الصادق عليه السلام فيما قاله للمنصور الدوانيقي العبّاسي: «لا تقبل في ذي رحمك، وأهل الرعاية من أهل بيتك، قول من حرّم الله عليه الجنّة، وجعل مأواه النار، فإنّ النمّام شاهد زور، وشريك إبليس في الإغراء بين الناس، فقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَة فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[٢٩٦]»[٢٩٧].

وعن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «المؤمن غرّ كريم، والمنافق خب لئيم، وخير المؤمنين من كان مألفة للمؤمنين ، ولا خير في من لا يألف ولا يُؤلف»[٢٩٨].

قال: «وسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: شرار الناس من يبغض المؤمنين، وتبغضه قلوبهم: المشّاؤون بالنميمة، والمفرّقون بين الأحبّة، الباغون للبراء العيب، أُولئك ﴿لاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ الله ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ﴾[٢٩٩]، ثمّ تلا صلى الله عليه وآله: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾[٣٠٠]»[٣٠١].

---

(٢٩٢) سورة النور: ١٩.

(٢٩٣) بحار الأنوار: ج٧٢ ص٢٤٨ ح١٤، الأمالي للصدوق: ص٣٣٧ ح١٦، الكافي: ج٢ ص٣٥٧ ح٢.

(٢٩٤) سورة القلم: ١٠ ـ ١١.

(٢٩٥) بحار الأنوار: ج٧٢ ص٢٦٤ ح٤، من لا يحضره الفقيه: ج٤ ص٣ ح٤٩٦٨.

(٢٩٦) سورة الحجرات: ٦.

(٢٩٧) بحار الأنوار: ج٤٧ ص١٦٨ ح٩ وج٧٢ ص٢٦٣ ح٣.

(٢٩٨) وسائل الشيعة: ج١٢ ص١٨ ح١٥٥٢٨، مستدرك الوسائل: ج٨ ص٤٥٠ ح٩٩٧٠.

(٢٩٩) سورة آل عمران: ٧٧.

(٣٠٠) سورة الأنفال: ٦٢ ـ ٦٣.

(٣٠١) مستدرك الوسائل: ج٩ ص١٤٩ ح١٠٥١٧، بحار الأنوار: ج٧٢ ص٢٦٥ ح٩.

السعاية

٣. ترك السعاية إلى الظالمين: بأن لا يرفع الإنسان تقريراً عن أحد إلى الحكّام الظالمين واستخباراتهم، فيهلك نفسه أوّلا وبالذات، ويهلك المظلوم . بأذاه له . ثانياً، ويهلك الظالم أيضاً ثالثاً، ففي الحديث أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ شرّ الناس يوم القيامة المثلّث! قيل: وما المثلّث يا رسول الله؟ قال: الرجل يسعى بأخيه إلى إمامه فيقتله، فيهلك نفسه وأخاه، وإمامه»(٣٠٢).

وروي أنّ رجلا جاء إلى أمير المؤمنين يسعى إليه برجل، فقال: «يا هذا ، نحن نسأل عمّا قلت؟ فإن كنت صادقاً مقتناك، وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن شئت أن نقيلك أقلناك؟ قال: أقلني يا أمير المؤمنين»(٣٠٣).

البهتان

٤. ترك البهتان: بأن لا ينسب الإنسان إلى الآخرين سوءً وهم عنه بُراء ، ومن الطبيعي أن يتضاعف للباهت العذاب، لأنّه كذب ونميمة، ولذا يعظّمه الله تعالى في قوله: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾(٣٠٤).

وقال تعالى في قصّة الإفك المشهورة، مهدّداً للأفّاكين والباهتين: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمْ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ﴾(٣٠٥).

وقال رسول الله ﷺ: «من بهت مؤمناً أو مؤمنة، أو قال فيه ما ليس فيه ، أقامه الله تعالى يوم القيامة على تل من نار، حتّى يخرج ممّا قاله فيه»(٣٠٦).

إفشاء العيوب

٥. ترك إفشاء العيوب: بأن لا يبوح الإنسان بما يراه أو يطلع عليه من عيوب الآخرين ونقائصهم، فإنّ المجتمع يبقى متماسكاً بالفضائل، حتّى يجاهر أحد برذيلة أو يفشي عيب أحد على الآخرين، فيتجرّأ بذلك العاصي وغيره ، فيؤثر المجتمع حينئذ الرذيلة على الفضيلة، إلى أن يتفكّك ويسقط في بؤرة الفساد والانحلال.

---

(٣٠٢) مستدرك الوسائل: ج١٨ ص٢١٤ ح٢٢٥٣٧، بحار الأنوار: ج٧٢ ص٢٦٦ ح١٤، قرب الإسناد: ص١٥.

(٣٠٣) بحار الأنوار: ج٧٢ ص٢٧٠، كشف الريبة: ص٤٥.

(٣٠٤) سورة النساء: ١١٢.

(٣٠٥) سورة النور: ١٥ . ١٧.

(٣٠٦) بحار الأنوار: ج٧٢ ص١٩٤ ح٥، جامع الأخبار: ص١٤٨.

ولذا فإنّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٣٠٧).

وقال رسول الله ﷺ: «ألا ومن سمع فاحشة، فأفشاها، فهو كالذي أتاها»(٣٠٨).

هذا من جانب، ومن جانب آخر: إنّ من يعلن بعيوب الناس، أعلن الناس بعيوبه، ومن سكت سكتوا عنه، وإلى ذلك يشير النبي ﷺ في حديث له حيث يقول: «كان بالمدينة أقوام لهم عيوب، فسكتوا عن عيوب الناس، فأسكت الله عن عيوبهم الناس ، فماتوا ولا عيوب لهم عند الناس، وكان بالمدينة أقوام لا عيوب لهم، فتكلّموا في عيوب الناس، فأظهر الله لهم عيوباً، لم يزالوا يعرفون بها إلى أن ماتوا»(٣٠٩). بل إنّ كشف عيوب الناس، أسوأ من كشف عورتهم، إذ أنّ الأوّل يحطّ من قدر المجتمع، بينما الثاني يحطّ من قدر الفرد، فعن حذيفة بن منصور قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: شيء يقوله الناس: عورة المؤمن على المؤمن حرام؟ قال: «ليس حيث تذهب، إنّما عورة المؤمن أن يراه يتكلم بكلام يعاب عليه، فيحفظه عليه ليعيره به يوماً إذا غضب»(٣١٠).

وفي حديث آخر: «إنّما هو إذاعة سرّه»(٣١١).

السخرية

٦. ترك السخرية، والهمز، واللمز، والغمز: بأن لا يسخر الإنسان من أحد، ولا يهمزه، ولا يلمزه، ولا يغمزه، لأنّ من يسخر من الناس سخروا منه ، حتّى لو كان مهيوباً عندهم، فإنّ مكانته تسقط عن القلوب، وهذا أقلّ جزاء يلقاه الساخر، فضلا عن سخرية الله تعالى منه كما قال: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٣١٢).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْم عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاء عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ

---

(٣٠٧) سورة النور: ١٩.

(٣٠٨) من لا يحضره الفقيه: ج٤ ص١٥ ح٤٩٦٨.

(٣٠٩) وسائل الشيعة: ج١٥ ص٢٩٢ ح٢٠٥٤٧، الأمالي للطوسي: ص٤٤ ح٤٩.

(٣١٠) بحار الأنوار: ج٧٢ ص٢١٤ ح٨، معاني الأخبار: ص٢٥٥ ح٣.

(٣١١) كما في الكافي: ج٢ ص٣٥٨ ح٢«عن عبد الله بن سنان قال قلت له: عورة المؤمن على المؤمن حرام، قال: نعم، قلت: تعني سُفْلَيهُ قال: ليس حيث تذهب إنّما هي إذاعة سرّه».

(٣١٢) سورة التوبة: ٧٩.

الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الاْيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ﴾[٣١٣].

هذا مضافاً إلى أنّ المستهزئ سرعان ما يسقط عن الأنظار ويبغضه الناس، ولذا قال الإمام الصادق عليه السلام: «لا يطمعنّ المستهزئ بالناس في صدق المودّة»[٣١٤].

وتكون المصيبة أعظم إذا كان المستهزأ به من أولياء الله تعالى، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ الله عزّوجلّ كتم ثلاثة في ثلاثة: كتم رضاه في طاعته، وكتم سخطه في معصيته، وكتم وليّه في خلقه، فلا يستخفنّ أحدكم شيئاً من الطاعات فإنّه لا يدري في أيّها رضا الله تعالى، ولا يستقلّن أحدكم شيئاً من المعاصي فإنّه لا يدري في أيّها سخط الله، ولا يزرين أحدكم بأحد من خلق الله فإنّه لا يدري أيّهم ولي الله»[٣١٥].

الأمانة

من علائم استقامة الروح وسلامة النفس: أن يكون الإنسان مستودع صدق لكل ما يودع فيه أو عنده، فالصندوق المعيب يبخل بما أُودع فيه، أمّا الصندوق السالم والصحيح فيفرغ كل ما فيه متى شاء المودع.

ولذا فإنّ الله تعالى عدّ أداء الأمانة من صفات المؤمنين البارزة فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِاَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾[٣١٦].

إذن: . وكما صرّحت به الآية الكريمة . إنّه لا إيمان لمن لا أمانة له، كما لا إيمان لمن لم يرع حرمة المواثيق والعهود.

وربما يظنّ الإنسان الأمانة شيئاً طفيفاً، لكنّها لدى التجربة العينية، والواقع الخارجي، والتطبيق العملي أثقل من الجبال بكثير، ولذلك فإنّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولا﴾[٣١٧].

ياله من تشبيه بليغ، وتمثيل جميل، يوقف الإنسان على مدى أهمية الأمانة وثقلها، إذ يعكس أنّ أقوى الموجودات وأرساها، تأبى قبول الأمانة، بينما الإنسان الضعيف يقبلها بلهفة، ويتعرّض لها برغبة

---

(٣١٣) سورة الحجرات: ١١.

(٣١٤) بحار الأنوار: ج٧٢ ص١٤٤ ح٩.

(٣١٥) مستدرك الوسائل: ج٩ ص١٠٣ ح١٠٣٥٢.

(٣١٦) سورة المؤمنون: ١ ـ ٨.

(٣١٧) سورة الأحزاب: ٧٢.

وحرص، ثمّ يخون فيها بعلم وعمد، فيظلم نفسه بذلك، ويجهل عاقبة الخيانة الوخيمة.

إنّ من تتبّع أحوال المستأمنين، وقرأ قصص خيانة بعض من خان منهم، أو جرّب نفسه لدى استيداع الآخرين أماناتهم لديه . وإن كان بمكانة من التنزّه والاحتفاظ . علم (علم اليقين) ثقل الأمانة، وأنّها تنوء بها الجبال الرواسي فكيف بالإنسان الضعيف؟

وإلى هذا الثقل يشير الإمام الصادق عليه السلام قائلا: «أحبّ العباد إلى الله عزّوجلّ: رجلٌ صدوق في حديثه، محافظ على صلاته، وما افترض الله عليه مع أداء الأمانة» ثمّ قال عليه السلام: «من أُؤتمن على أمانة فأدّاها فقد حلّ ألف عقدة من عنقه من عقد النار، فبادروا بأداء الأمانة، فإنّ من أُؤتمن على أمانة، وكّل به إبليس مائة شيطان من مردة أعوانه ليضلّوه، ويوسوسوا إليه، حتّى يهلكوه إلاّ من عصم الله عزّوجلّ»(٣١٨).

وممّا ينبّه على ثقل الأمانة، ما ورد في بعض الأخبار من أنّ ميزان صلاح الإنسان بنظر الإسلام هو أداء الأمانة، لا الصلاة والصيام، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا تنظروا إلى كثرة صلاتهم وصومهم، وكثرة الحجّ والمعروف، وطنطنتهم بالليل، ولكن انظروا إلى صدق الحديث، وأداء الأمانة»(٣١٩).

فإنّ كل شيء دون المال لا يمكن أن يكون ميزاناً عادلاً، وخطّاً فاصلا لبيان جوهر الرجال، ومعرفة صدقهم من كذبهم، وصحّتهم من سقمهم، إذ قد يكون الصوم والصلاة وقراءة القرآن أوراداً وعادات اعتادوا عليها، يصعب عليهم تركها ومفارقتها، بينما المال . والمال وحده . هو في هذا المجال الميزان العادل، والخطّ الفاصل، وقليل من ينجح في هذا الامتحان.

ثمّ إنّ الملفت للانتباه أنّ المؤتمن عادةً ما يخلق لنفسه من الأعذار الواهية ما هو أعلم بسقمها، غافلاً عن إنّ الإسلام يأبى كل عذر في هذا المجال، ويعتبره خيانة وغدراً.

فعن أبي حمزة الثمالي قال: سمعت علي بن الحسين عليه السلام يقول لشيعته: «عليكم بأداء الأمانة، فوالذي بعث محمّداً بالحقّ نبيّاً، لو أنّ قاتل أبي الحسين بن علي عليه السلام ائتمنني على السيف الذي قتله به، لأدّيته إليه»(٣٢٠).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «اتّقوا الله، وعليكم بأداء الأمانة إلى من ائتمنكم، فلو أنّ قاتل أمير المؤمنين عليه السلام ائتمنني على أمانة، لأدّيتها إليه»(٣٢١).

---

(٣١٨) بحار الأنوار: ج٦٦ ص٣٨٤ ح٤٦، الأمالي للصدوق: ص٢٩٥ ح٨، مشكاة الأنوار: ص٥٣، وسائل الشيعة: ج١٩ ص٦٩ ح٢٤١٧٢.

(٣١٩) بحار الأنوار: ج٦٨ ص٩ ح١٣، عيون أخبار الإمام الرضا عليه السلام: ج٢ ص٥١ ح١٩٧.

(٣٢٠) وسائل الشيعة: ج١٩ ص٧٥ ح٢٤١٨٨، بحار الأنوار: ج٧٢ ص١١٤ ح٣، الأمالي للصدوق: ص٢٤٦ ح٦.

(٣٢١) بحار الأنوار: ج٧٢ ص١١٤ ح٢، الأمالي للصدوق: ص٢٤٥ ح٥.

وفي حديث آخر عنه عليه السلام: «أدّوا الأمانة، ولو إلى قاتل الحسين بن علي عليه السلام »[٣٢٢].

هذا والخائن ـ كثيراً ما ـ يخون لتوفير ماله، لكنّه قد غفل عن أنّ الله تعالى جعل الخيانة سبباً للفقر، وعاملا مهمّاً من عوامل المسكنة والحرمان، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «الأمانة تجلب الغناء، والخيانة تجلب الفقر»[٣٢٣].

المشورة

إنّ من الأُمور المهمّة التي ندب إليها الإسلام الحنيف بإصرار، وأكّد عليها القرآن الكريم في بعض آياته بقوّة: هو المشاورة مع الآخرين والمشاركة لهم في الرأي، فقد مدح الله تعالى المؤمنين بكون أمرهم شورى بينهم، فقال: ﴿مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ... وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾[٣٢٤].

وليست المشورة فرض على المؤمنين فحسب. بل إنّ الله تعالى يأمر النبي صلى الله عليه وآله بالتشاور أيضاً وهو المتصل بالوحي، المعصوم عن الزلل، ليتأسّى به المسلمون.

قال عزّ من قائل: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[٣٢٥]، فكان النبي صلى الله عليه وآله أوّل الممتثلين لأمر ربّه، وأوّل من جعل ديدنه ذلك، حيث كان يشاور المسلمين في أُمور الحرب وغيرها ممّا لم ينزل فيه وحي خاصّ.

هذا من جانب، ومن جانب آخر: إنّ المستبدّ يعرّض نفسه للهلكة، وإلى ذلك يشير الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في حديث له قائلا: «خاطر بنفسه، من استغنى برأيه»[٣٢٦].

ومن المعلوم: إنّه إذا كانت الأُمور العادية تحتاج إلى المشورة، فالأُمور المصيرية وخاصّة مثل القضاء والحكومة، والقيادة والرئاسة ـ في زمن الغيبة ـ هي أولى الأُمور بها، وإلى هذا المعنى يشير قول الإمام الصادق عليه السلام: «لا يطمعنّ القليل التجربة المعجب برأيه في رئاسة»[٣٢٧].

وإنّما لا يطمع فيها، لأنّه حتّى لو حصل عليها ـ مكراً وغدراً ـ فسرعان ما يفلت زمامها من يده بالاستبداد والاستئثار، وبما يجرّه على مجتمعه وأُمّته من الفساد والدمار، والخبال والخراب.

---

(٣٢٢) مشكاة الأنوار: ص٥٢، وسائل الشيعة: ج١٩ ص٧٥ ح٢٤١٨٧، مستدرك الوسائل: ج١٤ ص١٠ ح١٥٩٥٤.

(٣٢٣) بحار الأنوار: ج٧٢ ص١٧١ ح٤.

(٣٢٤) سورة الشورى: ٣٦ ـ ٣٨.

(٣٢٥) سورة آل عمران: ١٥٩.

(٣٢٦) من لا يحضره الفقيه: ج٤ ص٣٨٨ ح٥٨٣٤، وسائل الشيعة: ج١٢ ص٤٠ ح١٥٥٨٩،بحار الأنوار: ج٧٤ ص٣٨٥ ح١٠، الأمالي للصدوق: ص٤٤٦ ح٩.

(٣٢٧) بحار الأنوار: ج٧٢ ص٩٨ ح٢، الخصال: ج٢ ص٤٣٤ ح٢٠.

ثمّ إنّ المشورة ليست حيث وقعت تجلب الخير، فربّ شخص تكون استشارته أضرّ، وخصوصاً من شبّ على صفة لئيمة، فمشورة الجبان في الحرب، والبخيل في العطاء، والسفيه في التصرّف.. لا تزيد إلاّ خبالاً.

ومن هنا نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن مشاورة أمثال هؤلاء فقال: «يا علي، لا تشاور جباناً فإنّه يضيق عليك المخرج ، ولا تشاور البخيل فإنه يقصر بك عن غايتك، ولا تشاور حريصاً فإنّه يزين لك شرهاً، واعلم يا علي أنّ الجبن والبخل والحرص غريزة واحدة، يجمعها سوء الظنّ»(٣٢٨).

وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «لما ولاّني النبي صلى الله عليه وآله وسلم على اليمن قال لي . وهو يوصيني .: يا علي ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار»(٣٢٩).

نعم، إنّ من طلب الخير وجده، ومن شاور الناس عرف وجه الصواب، لكن بشرط أن تكون المشورة مع أصحاب العقول الرزينة، والأحلام الصحيحة، والفكر المستقيم، والرأي الصائب، وليس مع كل أحد، فعن جعفر بن محمّد عن أبيه عليهما السلام، قال: «قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حينما سئل: ما الحزم؟ قال: مشاورة ذوي الرأي واتباعهم»(٣٣٠).

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «في التوراة أربعة أسطر: من لايستشير يندم، والفقر الموت الأكبر، وكما تُدين تُدان، ومن ملك استأثر»(٣٣١).

هذا وللمشورة شرط أساسي وهو أن يكون المستشار ممّن يحسب لله حسابه، ويخاف المعاد، وإلاّ أشار بما لا يرضى الله، ويكون عاقبة أمرهما خسراً، فعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في كلام له: «شاور في حديثك الذين يخافون الله»(٣٣٢).

يبقى القول بأنّ المستشار مؤتمن، فيلزم أن يقول الحقّ، ولو على نفسه، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «من استشار أخاه، فلم ينصحه محض الرأي، سلبه الله عزّوجلّ رأيه»(٣٣٣).

---

(٣٢٨) بحار الأنوار: ج٧٠ ص٣٠٤ ح٢١، علل الشرائع: ج٢ ص٥٥٩ ح١.

(٣٢٩) مصباح الكفعمي: ص٣٩٣ الفصل الخامس والثلاثون.

(٣٣٠) وسائل الشيعة: ج١٢ ص٣٩ ح١٥٥٨٢، بحار الأنوار: ج٧٢ ص١٠٠ ح١٦، المحاسن: ج٢ ص٦٠٠ ح١٤، مكارم الأخلاق: ص٣١٩.

(٣٣١) وسائل الشيعة: ج١٢ ص٣٩ ح١٥٥٨٤، بحار الأنوار: ج١٣ ص٣٥٧ ح٦٢، المحاسن: ج٢ ص٦٠١ ح١٦.

(٣٣٢) وسائل الشيعة: ج١٢ ص٤٢ ح١٥٥٩٣، مستدرك الوسائل: ج٨ ص٣٤٣ ح٩٦١٤، بحار الأنوار: ج٧٢ ص١٠١ ح٢١، الاختصاص: ص٢٢٦.

(٣٣٣) وسائل الشيعة: ج١٢ ص٤٤ ح١٥٥٩٩، بحار الأنوار: ج٧٢ ص١٠٢ ح٢٩، المحاسن: ج٢ ص٦٠٢ ح٢٧.

التواضع

يبني بعض الناس حياتهم على أُسس تخالف الأُسس التي هي عليها واقعاً، وبعبارة أوضح: يبنون الحياة على العفوية وعدم الالتزام بالاستقامة والسداد ، ولكنّهم يظهرون الصلاح والسداد.

فترى الشخص ـ مثلا ـ يصرّ على أن تظهر نفسه فوق مستواها، أو على الأقل: يحبّ ذلك، فإذا بصاحب العلم الضئيل، أو الثروة الضعيفة، أو الجاه النكد.. يتظاهر في منطقه وحكايته ليري نفسه أنّه من العلماء الكبار، والأثرياء العظام، والوجهاء الفخام.

ومن البديهي إنّ الواقع يأبى دوام هذه الادّعاءات الفارغة، ففي أوّل مرّة من قيام هؤلاء بعرض عضلاتهم، وإظهار أنفسهم، ينكشف الركام المزعوم... وتتجلّى الحقيقة المستترة.

ثمّ لا يخفى أنّ هذا الأمر هو من آثار الكبر في النفس، وحب الاستعلاء والتفوّق لكن من غير طريقه المستقيم.

وفي قبال هذه الصفة المذمومة، هناك صفة جميلة وحميدة، ألا وهي التواضع، وذلك بأن يرى الإنسان نفسه عند حدّه وعلى قدره،لاكذباً وخداعاً،بل حفظاً على التوازن بين المقادير والحدود.

وقد مدح الإسلام التواضع، لما فيه من بيان الحقيقة، وألفة القلوب، فضلا عمّا فيه من كسر نزوات النفس، وكبح جماحها.

قال الإمام أبو محمّد العسكري عليه السلام: «أعرف الناس بحقوق إخوانه وأشدّهم قضاءً لها: أعظمهم عند الله شأناً، ومن تواضع في الدنيا لإخوانه، فهو عند الله من الصدّيقين من شيعة علي بن أبي طالب عليه السلام »(٣٣٤).

كما أنّ المتواضع محبوب عند الله وإن كان صغيراً، والمتكبّر مذموم وإن كان عظيماً.. وبالتواضع يرتفع الشخص عند الناس، ويصبح مورد اهتمامهم واحترامهم، ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما تواضع أحد، إلاّ رفعه الله»(٣٣٥).

وروى الإمام الصادق عليه السلام عن أبيه عليه السلام: «إنّ علياً عليه السلام قال: ما من أحد من ولد آدم، إلاّ وناصيته بيد ملك، فإن تكبّر جذبه بناصيته إلى الأرض، وقال له: تواضع وضعك الله، وإن تواضع جذبه

---

(٣٣٤) مستدرك الوسائل: ج١١ ص٢٩٥ ح١٣٠٧٦، الاحتجاج: ج٢ ص٤٦٠.

(٣٣٥) مستدرك الوسائل: ج١١ ص٢٩٧ ح١٣٠٨٣، بحار الأنوار: ج٧٢ ص١٢٠ ح٧، الأمالي للطوسي: ص٥٦ ح٨٠.

تواضع تكن كالبدر لاح لناظر ... على صفحات الماء وهو رفيع

ولا تك كالدخان يعلو بنفسه ... على طبقات الجو وهو وضيع

بناصيته، ثمّ قال له: ارفع رأسك رفعك الله، ولا وضعك، بتواضعك لله»[٣٣٦].

وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة الأطهار عليهم السلام يتواضعون، ويعلّمون الناس التواضع، في أعمالهم وأقوالهم، ففي الحديث: «إنّ محمد بن مسلم كان رجلا شريفاً موسراً، فقال له أبو جعفر عليه السلام: تواضع يا محمد، فلمّا انصرف إلى الكوفة، أخذ قوصرة من تمر مع الميزان، وجلس على باب مسجد الجامع، وصار ينادي عليه، فأتاه قومه، فقالوا له: فضحتنا، فقال: إنّ مولاي أمرني بأمر، فلن أُخالفه، ولن أبرح حتّى أفرغ من بيع ما في هذه القوصرة، فقال له قومه: إذا أبيت إلاّ أن تشتغل ببيع وشراء، فاقعد في الطحانين، فهيّأ رحى وجملا، وجعل يطحن»[٣٣٧].

نعم، هكذا تكون القلوب العامرة بالإيمان، البعيدة عن مهاوي الكبر والاعتلاء، فقد امتثل محمّد بن مسلم صاحب المقام الرفيع أمر إمامه عليه السلام . الذي فيه الصلاح والسداد إذ هم عليهم السلام لا يأمرون إلاّ بما فيه خير الإنسان وصلاحه، ولا ينهون إلاّ عمّا فيه ضرره وفساده . فظنّ قومه أن سوف ينحطّ من مقامه بسبب هذه الفعلة، إلاّ إنّه ارتفع بذلك وارتفع، حتّى بلغ ما هو عليه اليوم من الجاه الرفيع، والمنزلة المنيفة، بحيث إنّ علماء المسلمين على مرّ التاريخ أصبحوا ينظرون إليه بالعظمة، ويذكرونه بالتبجيل والإكرام .

هذا وللتواضع فروع عديدة، منها التواضع في الكلام، وفي السلام، وفي المجلس، والمأكل، والمشرب، والملبس، والمركب، وقد تطرّق علماء الأخلاق إليها مفصّلا في مصنّفاتهم الكثيرة.

دعوة إلى الفضائل

كان الإمام علي بن الحسين عليه السلام بعد ما قتل بنو أُميّة أباه الحسين عليه السلام يعيش في محيط خانق، وجوّ مكهرب، ووسط مملوّ من العيون والجواسيس الذين أوكلهم بنو أُميّة به عليه السلام للتضييق عليه حذراً من إثارته الناس على سلطانهم الموبوء، فكان عليه السلام في حبس سياسي، وإن لم يكن في السجن.

ومن المعلوم: أنّ من يقيّد بهكذا قيود يصعب عليه الاتّصال بالناس، ولا يستطيع بحرّية من إرشاد المجتمع، وتبليغ الدين، ولذا فقد اختار هو عليه السلام أنجع الطرق، وأفضل الأساليب الحكيمة لدفع ظلم بني أُميّة، والقضاء على طغيانهم ، وإراحة الناس من شرّهم، مع نشر معالم الإسلام وأحكام القرآن، فضلا عن الإثارة على قتلة والده عليه السلام. وكان ذلك عبر أُمور تالية:

١ . البكاء المستمر الذي لم يفارقه قطّ حتّى آخر لحظات حياته عليه السلام إلى أن قضى عمره الشريف مسموماً شهيداً.

---

(٣٣٦) وسائل الشيعة: ج١٥ ص٣٧٦ ح٢٠٧٩٠، بحار الأنوار: ج٧٢ ص١٢٠ ح١١، ثواب الأعمال: ص١٧٦.

(٣٣٧) مستدرك الوسائل: ج١١ ص٢٩٧ ح١٣٠٨٢، بحار الأنوار: ج٧٢ ص١٢١ ح١٣، رجال الكشي: ص١٦٤ ح٢٧٨.

٢ . اتّخاذ العبيد والإماء، وتعليمهم شرائع الدين، ثمّ إعتاقهم في كل سنة ، واستبدالهم بغيرهم، فأصبحت داره مدرسة للتوجيه والإرشاد تخرّج كل عام مجموعة كبيرة من المثقّفين الواعين، والمبلّغين المخلصين للقرآن ولعترة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام.

٣ . الجنوح إلى الأدعية، وإيداعها معارف الإسلام، ولذا ورد عنه ما لم يستغن عنه مسلم من الدعاء والاستكانة.

إنّنا لسنا الآن بصدد بيان ذلك، وإنّما نريد إدراج فقرة من دعائه المعروف باسم دعاء: (مكارم الأخلاق) الذي هو أرفع وأنفع من كل كتاب يكتب بهذا الصدد، وذلك لما فيه من العبارات الشيّقة، والمضامين الرفيعة، والأساليب البليغة، ولنختم البحث، بهذا الختام المبارك.

قال عليه السلام في هذا الدعاء المذكور:

«اللهمّ صلّ على محمّد وآله، وبلّغ بإيماني أكمل الإيمان، واجعل يقيني أفضل اليقين، وانته بنيّتي إلى أحسن النيّات، وبعملي إلى أحسن الأعمال، اللهمّ وفّر بلطفك نيّتي، وصحّح بما عندك يقيني، واستصلح بقدرتك ما فسد منّي»(٣٣٨).

يا لله، لقد جمع هذا الدعاء كل خير، ولم يترك شيئاً من الحكمة إلاّ وأتى به ودعا له، إذ ما يريد الإنسان بعد أكمل الإيمان، وأفضل اليقين، وأحسن النيّات والأعمال، وبعد النيّة الوافرة وصحّة اليقين، واستصلاح الفاسد من أُمور الدين والدنيا؟

ولو فرضنا أنّ هناك من يدعو الله وهو بعيد عن كل هذه الأُمور، بهذا الدعاء، فما يكون هدفه منه، وما هو معناه؟

إنّ معناه والهدف منه: هو أنّه طلب من الله كل الخير والبركة والطالب لابدّ وأن يصل إلى مطلوبه، أو بعضه، فإنّ من «جدّ وجد، ومن لجّ ولج».

لقد قال الإمام السجّاد عليه السلام في فقرة أُخرى:

«اللهمّ صلّ على محمّد وآله، واكفني ما يشغلني الاهتمام به، واستعملني بما تسألني غداً عنه، واستفرغ أيّامي فيما خلقتني له، واغنني وأوسع عليّ في رزقك، ولا تفتني بالنظر، وأعزّني ولاتبتليني بالكبر، وعبّدني لك ولا تفسد عبادتي بالعجب، وأجر للناس على يدي الخير ولا تمحقه بالمنّ، وهب لي معالي الأخلاق، واعصمني من الفخر»(٣٣٩).

وكأنّ الإمام عليه السلام يعلّم البشرية جمعاء بأن تواظب على طلب العون والتسديد من الله تعالى ليأخذ بيدهم عند مزلاّت الأقدام، ويعينهم للخلاص من آفات الأعمال، والتي منها الافتتان بالعبادة، والعجب بالطاعات، والابتلاء بالكبر، والمنّ على الآخرين، وما شابه ذلك.

---

(٣٣٨) الصحيفة السجّادية: دعاء مكارم الأخلاق.

(٣٣٩) الصحيفة السجّادية: دعاء مكارم الأخلاق.

ولقد أشار الإمام عليه السلام في فقرة أُخرى من هذا الدعاء إلى مسألة معالي الأخلاق فقال:

«اللهمّ صلّ على محمّد وآله، ولا ترفعني في الناس درجة، إلاّ حططتني عند نفسي مثلها، ولا تحدث لي عزّاً ظاهراً، إلاّ أحدثتَ لي ذلّة باطنة عند نفسي بقدرها»(٣٤٠).

أجل، إنّ الإمام عليه السلام يناجي ربّه ويقول: إنّ العلو ونيل المراتب الرفيعة بيدك يا ربّ، وقد جعلت مفتاحه التواضع والذلّة في النفس، فجد عليّ ووفّقني كي أتواضع في نفسي كلّما رفعتني عند الآخرين.

ولقد قال عليه السلام في عبارة ثالثة: «اللهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد، ومتّعني بهدى صالح، لا أستبدل به، وطريقة حقّ لا أزيغ عنها، ونيّة رشد لا أشكّ فيها ، وعمّرني ما كان عمري بذلّة في طاعتك، فإذا كان عمري مرتعاً للشيطان فاقبضني إليك، قبل أن يسبق مقتك إليّ، أو يستحكم غضبك عليّ»(٣٤١).

إنّ الإمام عليه السلام من خلال هذه الفقرة العجيبة، يلقي على البشرية درساً مفيداً وعظة بليغة، تتّعظ بها الأجيال، وتستفيد منه على مرّ التاريخ، ألا وهو إنّ التوفيق لطاعة الله تعالى يحتاج إلى التوسّل إلى الله، والتضرّع ببابه، ومدّ اليد بالدعاء نحوه، والطلب منه، وإلاّ كان عمر الإنسان مرتعاً للشيطان، وحينئذ يكون الممات خير لابن آدم من البقاء، لأنّ في الموت حدّ للمعاصي التي يقترفها الإنسان العاصي في الحياة.

ثمّ يقول الإمام عليه السلام في دعائه: «اللهمّ صلّ على محمّد وآله، واجعل لي يداً على من ظلمني، ولساناً على من خاصمني، وظفراً بمن عاندني، وهب لي مكراً على من كايدني، وقدرة على من اضطهدني، وتكذيباً لمن قصبني، وسلامة ممّن توعّدني، ووفّقني لطاعة من سدّدني، ومتابعة من أرشدني»(٣٤٢).

وبهذا يشير الإمام عليه السلام إلى أنّه ليس في الإسلام تحمّل للظلم، ولا استسلام أمام الظالم، وإنّما يسعى المظلوم وبكل جهده لإحقاق حقّه، ودفع ظلامته، وكفّ الظالم وردعه عن ظلمه، وذلك بحنكة وحكمة، وتدبير وتفكير.

وهنا نكتفي بهذا القدر البسيط من (مكارم الأخلاق) ومن (الأخلاق الإسلامية) سائلين من الله تعالى التأييد والقبول.

والحمد لله بدءً وختاماً، والصلاة على سيّد ولد آدم محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وآله الكرام عليهم السلام أجمعين.

كربلاء المقدّسة

---

(٣٤٠) الصحيفة السجّادية: دعاء مكارم الأخلاق.

(٣٤١) الصحيفة السجّادية: دعاء مكارم الأخلاق.

(٣٤٢) الصحيفة السجادية: دعاء مكارم الأخلاق.

محمّد بن المهدي

الآخرة خير وأبقى

محاضرة لآية الله السيد محمد رضا الحسيني الشيرازي دام ظله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين، واللعن الدائم على أعدائهم أجمعين إلى يوم الدين[٣٤٣].

قال الله تعالى في كتابه الحكيم: ﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[٣٤٤].

مقدمة: ثراء النص القرآني

هناك ظاهرة في كتاب الله التدويني (القرآن الكريم) جديرة بالبحث والتأمّل، كما هي كذلك في كتابه التكويني جلّ وعلا، ألا وهي ظاهرة اختزال معان كثيرة في كلمات قليلة. هل اتفق لك أن بلغت ينبوع ماء صغير في صحراء واسعة، تراه صغيراً في ظاهره، ولكن عندما تبحث وتنقّب قد تجد تحته بحراً عظيماً من الماء؟! هكذا هي كلمات الله في القرآن الكريم، تنطوي على بحور من المعارف والحقائق.

وهذه الآية الكريمة ـ التي تصدرت البحث ـ لا تزيد على بضع كلمات ولكنها تبيّن طبيعة هذه الدنيا كلها وطبيعة النشأة الآخرة، وتُجري مقارنة دقيقة بينهما.

١. الآخرة أبقى من الدنيا

من الفروق الرئيسية التي ذكرتها الآية الكريمة بين الدنيا والآخرة أن الآخرة أبقى من الدنيا، وهنا لابد من بيان أن الحقائق على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الحقائق المحدودة: ككل الأمور المادية، فالدار محدودة بجدرانها، والبلدان محدودة بحيرانها، وهكذا.

النوع الثاني: الحقائق اللامتناهية بقول مطلق، ومثالها معلومات الله تعالى. لقد خمّن العلماء أن معلوماتنا نحن البشر لو جُمعت من بداية حياتنا إلى نهايتها فإنها تبلغ تسعين مليون مجلداً لكل فرد منا، أما الله تعالى فليس لعلمه حد؛ لأنه تعالى غير محدود، وعلمه عين ذاته، فعلمه غير محدود أيضاً.

النوع الثالث: الحقائق اللامتناهية على نحو اللاتناهي اللايقفي، ومثالها الدار الآخرة. الفرق بين النوعين الأخيرين أن النوع الثالث محدود بالفعل ولكنه غير محدود بالقوة ـ كالأعداد؛ فإنها وإن كانت

---

[٣٤٣] ألقيت هذه المحاضرة بتاريخ ٩ جمادى الأولى ١٤٢٤هـ.

[٣٤٤] سورة الأعلى: ١٧.

بالفعل محدودة بالمعدودات الموجودة ولكنها لاتقف عند حد معيّن في التصوّر. أما النوع الثاني فهو لامتناه بالفعل. والآخرة من النوع الثالث، فهي باقية ما شاء الله سبحانه. لقد روي عن النبيﷺ أنه قال: «وإنا خُلقنا وإياكم للبقاء لا للفناء»[٣٤٥]. إن عدد السنين التي سنبقى فيها في الآخرة غير متناه، كما أن العدد نفسه غير متناه أيضاً، فإذا استطعت أن تقف بالعدد عند حد، فقف عند ذلك على سنيّ الآخرة، إذن نحن باقون في الآخرة بإبقاء الله سبحانه لنا، أما الله سبحانه فهو باق بذاته. مهما ذهب بك الخيال ومهما استطعت أن تضع أصفاراً في يمين عدد ما، فإن الأمر لا يتوقف عند حد، بل يمكن أن تضيف أيضاً، وكذلك حال البقاء في الآخرة. أما الدنيا فمحدودة ولابد من يوم نرحل منها جميعاً، بل ما أسرع أن يرحل أحدنا منها! كان السيد الوالد ﵀ إذا شاهد إعلاناً بوفاة أحد، يقول: سيأتي يوم يرى الآخرون صورنا في إعلان كهذا. وهكذا ينتهي كل شيء، لتبدأ مسيرة الآخرة.

٢. الآخرة خير من الدنيا

الميزة الأخرى للآخرة أنها خير من الدنيا. ولكي تتضح الفكرة نأتي بمثال: إن من الشهوات القوية عند الإنسان في هذه الحياة شهوة الملك والحكم، حتى لقد عُدّت إحدى العوامل المهمة في حركة التاريخ البشري؛ فهي التي كانت وراء كثير من الحروب التي ربما غيّرت وجه التاريخ. هاهنا نسأل: ما هو أقصى ما يمكن لشخص أن يحققه في هذا المجال؟ إنه بلا شك لا يتعدى حكم الكرة الأرضية، وهل هي بالقياس إلى هذا الكون المترامي إلا كذرة أو دونها؟!

هذا عن مساحة الحكم، فما هي أقصى المدة الزمنية التي يمكن لإنسان أن يحكم فيها إن استطاع؟ لاشك أن ذلك أيضاً لايتجاوز بضعة عقود، لا تشكل شيئاً من عمر الدنيا فكيف بالآخرة! ناهيك عما سيتخلل هذا الحكم من منغصات ومكدرات ومحن وهزائم وقلق دائم لخوف الزوال والانتقال إلى الغير! ولذلك ورد في المأثور: أن الرئاسة أولها ملامة، وأوسطها ندامة، وآخرها عذاب يوم القيامة. هذا حال مُلك الدنيا، فتعال الآن لنسمع عن ملك الآخرة، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَ مُلْكًا كَبِيرًا﴾[٣٤٦]. ولكي يتضح لنا الفرق أكثر يكفي أن نعرف أن الله تعالى عبّر عن الدنيا ونعيمها بقوله سبحانه: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[٣٤٧]. ولقد روي ما مضمونه أن جبرئيل ﵇ طلب من الله تعالى أن يريه أبعاد الجنة، فقال الله له: طر، فطار جبرئيل فوق الجنة واستمر يطير ثلاثين ألف عام، فضعف عن الطيران، وطلب من الله المدد، وأتاه المدد الإلهي فطار ثلاثين ألف أخرى، وتعب فطلب المدد وأتاه، وهكذا حتى ثلاثين ألف مرة، في كل منها يطير ثلاثين ألف عام (أي ما مجموعه تسعمائة مليون عام)، وبعد كل هذه المدة الطويلة إذا بحورية تخاطبه: إنك منذ بدأت بالطيران وحتى الآن لازلت تطير فوق جنتي! فعجب جبرئيل منها وسألها: ومن تكونين؟ فأجابت: حورية أعدّني الله تعالى لمؤمن

---

[٣٤٥] بحار الأنوار: ج٦٨ ص٢١٤.

[٣٤٦] سورة الإنسان: ٢٠.

[٣٤٧] سورة النساء: ٧٧.

واحد من المؤمنين!

فهل يعد ملك الدنيا بعد هذا شيئاً إذا ما قيس إلى هذا الملك وما فيه من الخدم والحشم والحوريات التي لو أشرفت إحداهن على أهل الدنيا لماتوا بأجمعهم من رؤية جمالها! فكيف إذن بالمؤمنات ومقامهن أعلى من الحور العين؟! وهن المقصودات من قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾[٣٤٨]. كما أنه ليس في ملك الجنة كدر ولا قلق ولا خوف من زوال النعمة. أفلا تكون نعم الدنيا بالنسبة إلى نعم الآخرة بعد هذا كقطرة بالنسبة إلى بحر أو أقلّ؟! وإذا كان الأمر كذلك، أفليس الخاسر الحقيقي من يخسر الآخرة؟ قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾سورة الزمر: ١٥. أرأيتم ماذا فعل صدام من أجل حوالي ثلاثة عقود من الحكم والرئاسة؟ وكم سيأخذ معه من أهليه ومن تبعه إلى نار جهنم؟!

أجل هذه هي الخسارة التي ما بعدها خسارة. وأعظم من كل النعم في الآخرة شعور المؤمن برضا الله تعالى عنه، ترى كم سيسرّ أحدنا إذا علم أن أباه راض عنه، فكيف سيكون الإحساس برضا الله تعالى؟!

وفي قضية معروفة لا مجال لذكرها الآن، قال الإمام الحجة (عجل الله تعالى فرجه الشريف) لأحد علمائنا وهو الشيخ طه نجف ﵀: أنت مرضيّ عندنا. ففي يوم القيامة يشعر المؤمنون بلذة (رضوان الله) وهي لذة تفوق كل لذة وكل ما سواها من نعم الجنة؛ يقول الله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. سورة التوبة: ٧٢.

وقد روي عن الإمام علي بن الحسين ﵇ قال: إذا صار أهل الجنة في الجنة ودخل وليّ الله إلى جنانه ومساكنه، واتكأ كل مؤمن منهم على أريكته، وحفّته خدامه، وتهدّلت عليه الثمار، وتفجّرت حوله العيون، وجرت من تحته الأنهار، وبسطت له الزرابي، وصففت له النمارق، وأتته الخدام بما شاءت شهوته من قبل أن يسألهم ذلك.. وخرج عليهم الحور العين من الجنان فيمكثون بذلك ما شاء الله... ثم إن الجبار يشرف عليهم فيقول لهم: أوليائي وأهل طاعتي وسكان جنتي في جواري! ألا هل أنبئكم بخير مما أنتم فيه؟ فيقولون: ربنا وأي شيء خير مما نحن فيه؟ نحن فيما اشتهت أنفسنا ولذت أعيننا من النعم في جوار الكريم. قال: فيعود عليهم بالقول. فيقولون: ربنا نعم فأتنا بخير مما نحن فيه. فيقول لهم تبارك وتعالى: رضاي عنكم ومحبتي لكم خير وأعظم مما أنتم فيه، قال: فيقولون: نعم يا ربنا رضاك عنا ومحبتك لنا خير لنا وأطيب لأنفسنا»[٣٤٩].

وقد نقل السيد الوالد ﵀ عن السيد الميلاني ﵀ أنه نقل عن أستاذه الشيخ مرتضى الطالقاني ﵀ أنه فتح عينيه وهو في حالة الاحتضار (وهذه من نعم الله حيث يعود المحتضر إلى وعيه قبل أن يفارق الحياة، لعله يوصي بوصية أو يستغفر الله تعالى في اللحظات الأخيرة من عمره) وقال لمن حوله: لو علم المؤمن ما أعدّه الله تعالى له في الآخرة لما عوّض نصف ساعة من الآخرة بكل الدنيا. ثم أغمض

---

[٣٤٨] سورة الرحمن: ٧٠.

[٣٤٩] بحار الأنوار: ج٨ ص١٤٠.

عينيه وتوفي رحمه الله.

تركيز القرآن على موضوع الآخرة والعيش في أجوائها

من الأمور المثيرة للعجب أنّا عندما نطالع التوراة المتداولة اليوم نرى غلبة الطابع المادي عليها ولا نرى ذكراً للآخرة. على ما نقل. إلا في آية واحدة تشير إلى الموت والحياة وأن الرب يحيي ويميت!

وفي الإنجيل المتداول فعلياً هنالك ذكر للآخرة إلا أنه قليل.

أما القرآن الكريم فإن الطابع العام فيه هو تذكير المؤمنين بالآخرة، ونقلهم للعيش في أجوائها، حتى نقل عن بعض الأعلام أن ثلثي آيات القرآن تدور حول الآخرة، أي أكثر من ألفي آية. أما كيف نعيش أجواء الآخرة، فإن ذلك يتحقق من خلال أمور، منها: المواظبة على قراءة القرآن الكريم ولو بمعدل صفحة في اليوم الواحد. وكذلك مطالعة نهج البلاغة وأحاديث أهل البيت عليهم السلام، فهي الأخرى تنقل الفرد إلى عوالم الآخرة، قال ابن أبي الحديد المعتزلي عن إحدى خطب الإمام في نهج البلاغة حول الآخرة:

«وأقسم بمن تقسم الأمم كلها به، لقد قرأت هذه الخطبة منذ خمسين سنة وإلى الآن أكثر من ألف مرة، ما قرأتها قط إلا وأحدثت عندي روعة وخوفاً وعظة وأثّرت في قلبي وجيباً وفي أعضائي رعدة، ولا تأمّلتها إلا وذكرت الموتى من أهلي وأقاربي وأرباب ودي وخيلت في نفسي أني أنا ذلك الشخص الذي وصف عليه السلام حاله»[٣٥٠].

ومن الأمور الأخرى التي تزيد من ارتباط الإنسان بالآخرة وتقلل من اهتمامه وتعلقه بالدنيا: تشييع الجنائز وزيارة القبور؛ فإن الإنسان عندما يذهب إلى المقابر ينتقل من عالم الجلبة والضوضاء إلى عالم السكون والهدوء، ويبدأ يفكّر في حال من سبقوه وكان فيهم من هو أعقل منه وأكبر وأعظم وأكثر دهاءً وحيلة، ومع ذلك لم تنفعه إمكاناته وصار رهين القبر!

ومما ينقل عن أحوال الجد رحمه الله[٣٥١] أنه كان يذهب إلى المقابر ويدخل قبراً مفتوحاً ثم يضطجع ويتصور نفسه ميتاً، فيبدأ الطلب من الله ويقول: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ۝ لَعَلِي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيما تَرَكْتُ﴾[٣٥٢]، ثم يجيب نفسه بالقول: ﴿كلا﴾ لقد أعطيناك الفرص فضيعتها! ويظل يلحّ حتى يأتيه الخطاب: قد أرجعناك يا مهدي، قم واستأنف العمل.

ومن الأمور الأخرى النافعة في مجال تذكّر الآخرة: النظر إلى الدنيا على حقيقتها وأنها جسر وقنطرة للآخرة فقط، فإذا كنت تنوي الوصول إلى مكان ما وكانت في طريقك قنطرة لابد من عبورها، فهل ستفكّر في لون القنطرة مثلاً، أم لا تفكر سوى في اجتيازها بلوغاً للهدف المنشود؟ هكذا هو حال الدنيا بالنسبة للآخرة.

---

[٣٥٠] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي: ج١١ ص١٥٣.

[٣٥١] المرحوم آية الله العظمى السيد الميرزا مهدي الشيرازي قدس سره.

[٣٥٢] سورة المؤمنون: ٩٩-١٠٠.

ومما يذكّر الإنسان بالآخرة: مطالعة أحوال الصالحين والتائبين وكيف أعرضوا عن هذه الدنيا الفانية واتجهوا نحو الآخرة الباقية.

- فإبراهيم بن أدهم مثلاً ترك الملك دفعة وهام بوجهه في الصحراء، ولم يكن ذلك باستطاعته لولا أنه حقّر الدنيا وملكها في نظره!
- ويروى في أحوال السيد المسيح (على نبينا وآله وعليه السلام) أنه التقى حطاباً فقيراً، فحوّله . في قصة طويلة . ملكاً، فقال الحطّاب: لم لا تصنع لنفسك مثل هذا؟ فأجابه السيد المسيح عليه السلام: شُغلنا عن ذلك بما هو أغلى!
- عندما أثار موقف الحر بن يزيد الرياحي الشجاع والفريد من نوعه، عجب من شاهده، قال في جوابه: إني أخيّر نفسي بين الجنة والنار، ووالله ما كنت لأختار على الجنة شيئاً!
- تخلى أحد ولاة بني أمية عن الولاية وزهد في الدنيا وتاب إلى الله تعالى، حتى أنه تخلى عن ثيابه، ليتطهّر من المال الحرام، وعندما دخل عليه أحد أصحابه حدّثه من وراء الباب، ولم يلبث قليلاً حتى مات!

عندما يعيش الإنسان أجواء الآخرة يتحوّل تحوّلاً عجيباً، ويترفّع عن سفاسف الدنيا ويسمو نحو آفاق الآخرة الرحيبة.

مسؤوليتنا ثقيلة في هذا المجال

كان السيد الوالد رحمه الله يؤكّد على الخطباء الكرام أن لا ينسوا هذا الموضوع المهم أبداً، وأن يكون التذكير بالآخرة أحد خمس خطب يخطبونها، لأن التذكير بالآخرة هو الطريق الوحيد لتحريك الإنسان وتخليصه من الانشداد إلى الأرض. إن الموعظة والتذكير بالآخرة كانا جزءً ثابتاً من مادة المنبر في السابق، وينبغي لهذه الحالة أن تعود، ليس من على المنابر المتعارفة وحدها، بل من خلال كل منبر إعلامي ممكن، وهذه الحاجة غدت اليوم أكثر ضرورة، إذا أخذنا بنظر الاعتبار حالة الشباب المسلم المتأثر بالغرب لاسيما الذين يعيشون منهم في بلاد الغرب، فكيف سيقاومون كل تلك الإغراءات؟ لا شك أنهم لايستطيعون المقاومة إلا إذا كان عندهم إيمان حقيقي بالآخرة. وعلى كل حال يجب أن نستثمر هذه الأعوام القليلة المتبقية من أعمارنا في هذه الدنيا، والتي لا تشكل إلا جزءً صغيراً ضئيلاً من أعمارنا الحقيقية، فما أقصر الفترة القصيرة التي نقضيها في هذه الحياة، إذا ما قارناها بما لا نتذكره من الأعوام السابقة (في عالم الذر)، وبالسنوات التي لا نهاية لها في عالم الآخرة!

وما أقلّ ما نعمله من أجل حياتنا الحقيقية والخالدة!

لو أن شخصاً بنى ألف مسجد وحسينية مثلاً فسيكتشف يوم القيامة أن عمله كان قليلاً؛ لما سيرى من عظمة الدار الآخرة وأن الزاد المطلوب لها كثير كثير. ومن هنا يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «آه

آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق»[٣٥٣]. إذن علينا أن لا نقنع بالقليل من أعمالنا، بل لابد من الاستزادة قبل أن يدركنا الأجل.

نقل أن الشيخ (عبد الزهراء) الكعبي رحمه الله جاء إلى المرحوم الجد قدس سره وقال له: أحمل إليك رسالة وأعتذر إليك من نقلها. فقال له الجد: قل ما هي؟ قال: رأيت الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في عالم الرؤيا فقال لي: قل لمهدي فليستعد لسفر الآخرة. فأخذ الجد يبكي ويقلب كفيه وهو يقول: كيف أقدم على الله ويداي خاليتان؟ لا مجاملة في هذا الكلام، بل هو واقع يدركه أولياء الله تعالى. ألم يأمر الإمام علي عليه السلام أن يُكتَب على قبر سلمان (رضوان الله عليه): وفدتُ على الكريم بغير زاد إننا مهما نفعل فهو قليل، وهناك سنفهم حقيقة هذا الأمر ونندم حيث لا ينفع الندم. نسأل الله سبحانه وتعالى أن ينبهنا من نومة الغافلين.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين.

---

[٣٥٣] شرح نهج البلاغة: ج١٨ ص٢٢٥.

الفهرس

كلمة الناشر ٣

مقدّمة المؤلّف ٥

الفصل الأوّل

٧-٢٤

الطهارة / طهارة العين/ نزاهة اللسان/ الاعتدال في الحديث

طهارة الجوارح / نقاء السريرة / طهارة الجسد/ أخذ الشعر وتسريحه

استحباب السواك / اتّخاذ الطيب استحباب الاستحمام

نظافة الثياب والملابس / نظافة المنازل

الفصل الثاني

٢٥-٣١

في آداب العبادة / العبادة وتهذيب النفس / الصلاة معراج المؤمن

الصوم رياضة المتّقين / الحجّ مؤتمر الوحدة الإسلامية

الحقوق المالية وتآلف المجتمع / الجهاد ورفع الأغلال

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر / التولّي والتبرّي

الفصل الثالث

٣٢-٤٠

خُلُق الفرد / الكسل / الطمع والحرص / حبّ الظهور / إكبار النفس / العلم

الفصل الرابع

٤١-٥١

أخلاق العائلة / الوالد والولد / الزوجان / مقتطفات عن الحقوق الزوجية / الأرحام

الفصل الخامس

٥٢-٨٤

الأُلفة والوحدة / السبيل إلى الأُلفة / الإسلام والإنسانية العامّة

حُسن الخُلْق / الجود والبخل / الجار والصديق / السعي في الحوائج

الصدق / الكذب مفتاح الرياء / شهادة الزور / خلف الوعد / النفاق

العدل والنصفة / لسان السوء / الغيبة / النميمة / السعاية / البهتان

إفشاء العيوب / السخرية / الأمانة / المشورة / التواضع / دعوة إلى الفضائل

(الآخرة خير وأبقى) محاضرة لآية الله السيد محمد رضا الشيرازي ٨٥

الفهرس..... ٩٠